قصة

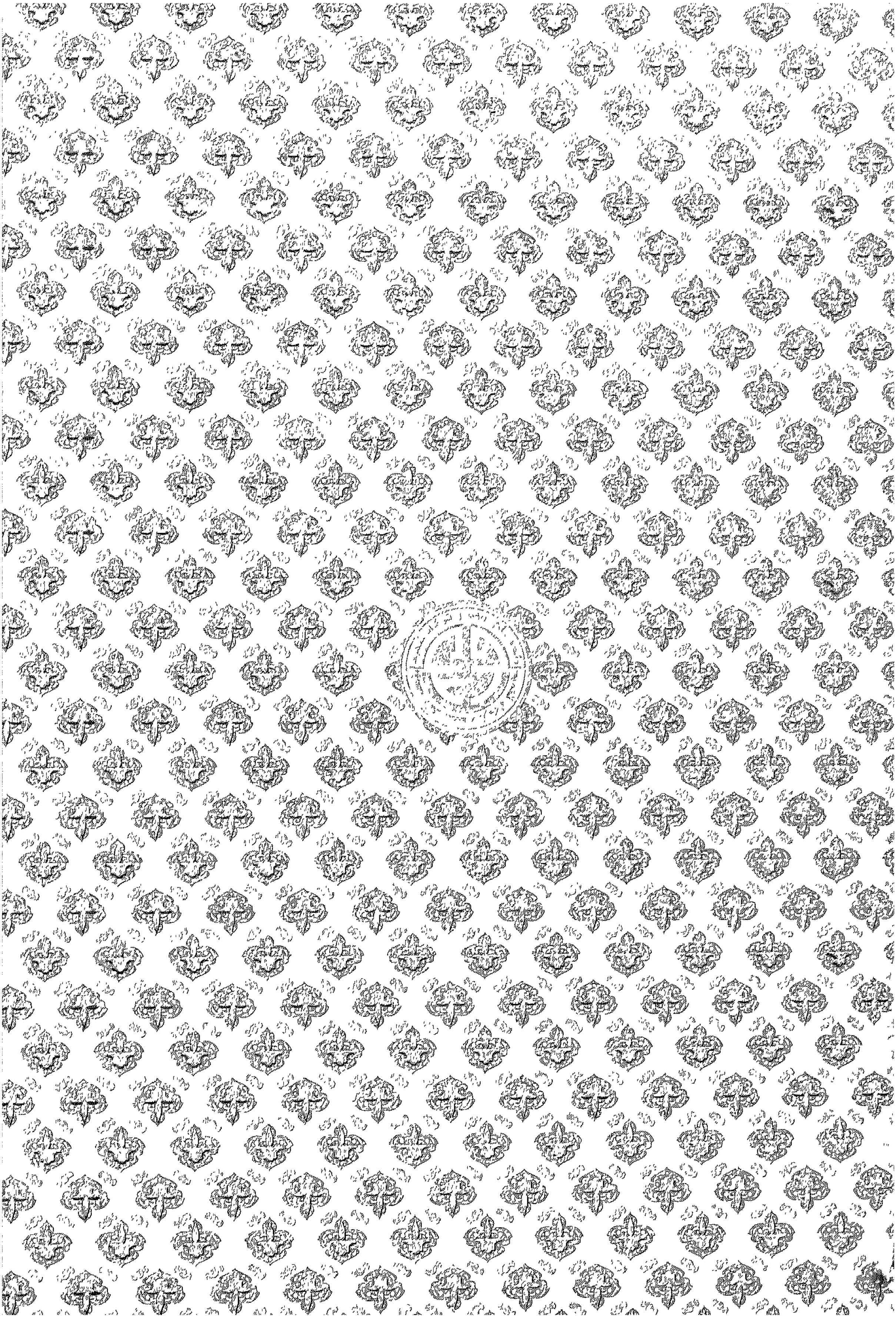
وتاريخ الحضارات العربية

بين الامس واليوم

السعودية
الإمارات العربية المتحدة



EDITO CREPS
INTERNATIONAL



قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

١١ ـ ١٢

قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

١١ ـ ١٢

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

السعودية
الإمارات العربية المتحدة

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

القسم الأول

السعودية

برناديت غانم

لمحة جغرافية

مملكة في قلب الجزيرة العربيّة، تمتد ما بين الخليج العربي شرقاً والبحر الأحمر غرباً. تبلغ مساحتها مليوناً وربع المليون كلم^2.. وعدد سكّانها الأصليّين يفوق الـ١٢ مليون نسمة في منتصف التسعينات. تغيّرت عبر المسيرة الإنمائيّة وكَثُرت فيها المشاريع.

إنّها المملكة العربيّة السعوديّة، وعاصمتها الرياض التي تبلغ مساحتها ١٦٠٠ كلم^2 وفيها مليونا نسمة. وتقع الرياض في قلب المنطقة الوسطى من المملكة العربيّة السعوديّة، وعمر الوثبة الحضاريّة في هذه العاصمة لا يزيد عن ١٥ سنة فقط، وبفضل سكّانها تحوّلت إلى مرفق حضاري فيه الكثير من الحدائق والنوافير. وتمتد شبكة من الطرق والجسور من روائع الهندسة الحديثة، شكّلت حركة النقل التي لا تهدأ داخل المدينة. وإذ يأتي الليل وتغيب الشمس تكتسي الأنوار وتسبح في بحار من النور. وفي الرياض المقرّات الرئيسيّة للبنوك والمؤسّسات الرسميّة في الدولة. وفيها ٢٥٠ حديقة عامة تعتبر متنفساً للسكّان ومُلتقى للزائرين والروّاد.

وفي المملكة السعوديّة مدن مهمّة كثيرة، أبرزها:

مدينة جدّة، عروس البحر الأحمر، كما كانت قبل ٥٠ سنة. تبلغ مساحتها ١٢٠٠ كلم^2، ويعيش فيها أكثر من مليون نسمة، أُعيد بناء بوّاباتها القديمة وهي سبع بوّابات رئيسيّة. فيها نهضة عمران حديثة، لكنّها بقيت على كثير من المباني التراثية، لتصل الماضي بالحاضر. العمران أجمل إمكاناتها وفيها نافورة الملك فهد بن عبد العزيز في عرض البحر وتدفع المياه إلى ٢٦٠ متراً.

مدينة الطائف الشهيرة، مدينة الـ٤٠٠ حديقة وفيها قصر المؤتمرات

ومعالم حضاريّة، ومحطّة الشعيرة التي تمدّ الطائف بالمياه المحلاّة.

مكّة المكرّمة وفيها المسجد الحرام والكعبة المشرّفة. وكانت مكّة في الماضي ممرّاً للقوافل ومركزاً للتجارة. وصل إليها النبيُّ اسماعيل بن ابراهيم سنة ١٨٢٤ ق.م. وفي سنة ٦١٠ م نزل فيها الدين الإسلامي على النبي محمّد. وحتى سنة ١٩٢٥ لم يكن يصل مكّة من الحجيج إلاّ مئة ألف حاج، واليوم سيل من المسلمين يفدون، مليونا حاج من داخل المملكة وخارجها؛ وتمدّ مكّة بالمياه المحلاّة محطة الشعيرة.

المدينة المنوّرة التي تعيش حالياً تطوّراً للمسجد النبويّ الشريف، ثاني الحرمين الشريفين وقبر الرسول. ويجري توسيع الحرمين الشريفين بإشراف شخصي من الملك فهد بن عبد العزيز، ويتم استكمال التصميم الهندسي وتعمل الشركة المنفذّة لإنجاز هذا المشروع في الوقت المحدّد له، ومأذنتان بارتفاع ٩٠ متراً تقريباً، والساحات الخارجيّة مبلّطة بالرخام الأبيض. ويتم تغذية المدينة المنوّرة بالمياه والطاقة من بحر ينبع على البحر الأحمر.

والمنطقة الجنوبيّة في المملكة منطقة ذات جبال شاهقة وإنتاج زراعي، وإنجازات طرق، غزيرة المياه كثيرة السيول، فيها سدّ الجيزان والمجرّان وعشرات الملايين من الأمتار المكعّبة لاستخدامها في ريّ الأراضي الزراعيّة على مدار السنة. وتزداد يوماً بعد يوم عمراناً وحداثة، تستقبل المصطافين لمناخها المعتدل.

وفي المنطقة الجنوبيّة الربع الخالي حيث تجري أعمال تنقيب عن البترول تعد بالخير، فهل يفيض الربع الخالي بأسراره؟

والمملكة العربية السعودية مهد الإسلام، انطلق منها، وانتشر بين أندونيسيا شرقاً وإسبانيا غرباً. والقرآن والسنّة هما الركيزتان الرئيستان للشريعة الإسلاميّة، ويعمل الملك فهد على تطبيقها والنهوض بشعبه كلّه. ويعتمد النظام القضائي على الشريعة الإسلاميّة في المملكة، وعلى الأحكام التي أنزلها الله للشريعة البشريّة في الدُنيا والآخرة.

ذاع الأمن والأمان والنظام في السعوديّة، فالسير في الشوارع والميادين آمن في اللّيل والنهار، والإسلام عندهم يستوعب كل مناهج الحياة للفرد الإسلامي في المجتمع.

أمّا المعاملة التجاريّة فتقوم على الأمانة والشراكة والصدق. والعلم فريضة على كلّ فرد.

والرياضة البدنيّة أيضاً ضروريّة للأخذ بأسرار القوّة والصحّة، والواجبات الدينيّة كذلك.

من أشهر مهرجاناتها: مهرجان الجنادريّة، انتقل من مهرجان محلّي سعودي، إلى مهرجان عربي إقليمي، فمهرجان عالمي، يستمر أُسبوعين سنويّاً، وهو من تنظيم الحرس الوطني.

يجمع مهرجان الجنادريّة على مدى أُسبوعين جميع المثقّفين من العالم الغربي والعربي والإسلامي، وهو مناسبة متميّزة، تجري فيه بحوث علميّة وإشكاليّات ثقافيّة عامّة. يؤمّه للمشاركة ولإحيائه أساتذة الكتّاب، وأساتذة الشعر والنثر، والمفكّرون العرب والصحافيّون. يجري فيه سباق الهجم والخيول وهي الرياضة الشعبيّة الأكثر شهرة في الجزيرة العربية، ولا سيّما في العربيّة السعوديّة، يجري في ختامها توزيع جوائز على الفائزين.

وتعرض المنتوجات المحليّة على السعوديّين وغير السعوديّين. وتدور حلقات من الرقص الشعبي الفولكلوري السعودي يصاحبه غناء فولكلوري سعودي. ويقول المعلّقون السعوديّون في هذا المهرجان الأهم إنّه مناسبة يلتقي فيها السعوديّون في ما بينهم.

والمملكة العربيّة السعوديّة، هي النفط والنفط هي؛ إنّها أكبر مصدّر للنفط حالياً، لا بل أوّل مصدّر وأكبر منتج له. فهي تمتلك تقريباً ثلث موارد النفط المُكتشفة خارج روسيا وآسيا الوسطى والصين. كما أنّ القرارات التي تتّخذ في العاصمة الرياض تؤثّر سلباً وإيجاباً على ميزان المدفوعات في الولايات المتّحدة الأميركيّة والكثير من الدول الأُخرى وعلى تطوّرها

الإقتصادي، وتتحكّم بمستوى التضخّم النّقدي ومستقبل الدولار، وإلى درجة ما بسير النزاع العربي الإسرائيلي، كما يؤكّد المؤرّخون والمستشرقون.

وكان السبب في أكبر صدام مسلّح بعد انتهاء حرب الخليج أو ما أُطلق عليه «الحرب الباردة» لا يقتصر على غزو العراق للكويت، بل ينطوي على خطر احتلال العربيّة السعوديّة وتجزئتها.

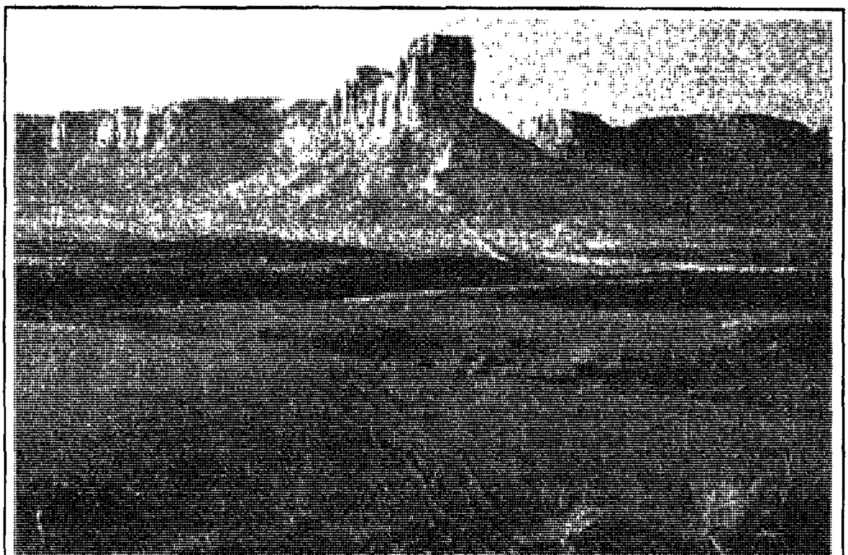
الفصل الأول

العرب
في
شبه الجزيرة العربية

لم تعرف بلاد العرب قبل الإسلام شكل الحكومة المركزية، وإنّما قامت فيها وحدات سياسية مستقلة على أسس قبلية، تفاوت تنظيمها وفقاً لتباين اتساع نطاق نفوذها وسلطتها. وهذه أبرز المظاهر في تاريخ العرب قبل الإسلام.

الأرض

بلاد العرب قطر صحراويّ فسيح تبلغ مساحته حوالي ثلاثة ملايين كلم[٢]. وهي شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من آسيا، يحدّها الخليج



وادي أسواط

العربي وبحر وعُمان من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب، وبادية الشام وبلاد الرافدين من الشمال، وهي بهذا الموقع تحتل مركزاً غاية في الأهمية بالنسبة للمواصلات والمبادلات التجارية بين عالم حوض البحر المتوسط. وعالم المحيط الهندي.

الشعب

يعتبر العرب الممثلين الرئيسيين لما دعاه علماء الأجناس بالجنس الشرقي، إنسان الشرق القديم مربوع القامة وهزيل البنية، أسمر البشرة، وأسود الشعر. وقد توزّع أبناء الجنس الشرقي هذا في مناطق مختلفة في الجزيرة العربية، وأصابوا درجة معيّنة من التقدّم الحضاري، وتكاثروا ولم تعد واردات الجزيرة الممدودة كافية لإعالة أعدادهم المتزايدة. وعلى الأثر أخذت جماعات منهم تنزح، على شكل موجات بشرية متلاحقة، إلى الأقاليم المجاورة حيث تيسّرت موارد العيش في الأحواض النهرية، وعند السواحل البحرية. من هذه الموجات كان الأكاديّون، والبابليوّن، والكلدانيون، والأراميون، والكنعانيون. كما نزحت فئات منهم إلى وادي النيل وتشكّل من امتزاجها مع العناصر الافريقية الشعب المصري.

التراث الفكري

خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤرّخين من أنّ العرب عاشوا في عزلة عن الحضارة حتى ظهور الاسلام، واحتكاكهم بحضارات الفرس والروم، فقد أثبتت الحفريّات وسياق الأحداث التاريخية أنّ العرب استطاعوا أن يبنوا تراثاً حضارياً بالغ الأهمية ما زال الجزء الأكبر منه مطموراً تحت الرمال حتى اليوم.

الكتابة واللّغة

تكلم العرب في مختلف أنحاء بلادهم لهجات متقاربة، ذات أرومة واحدة، ولم يكن من الصعب عليهم تفهّم هذه اللهجات، الأمر الذي ساعد على تسهيل التبادل التجاري في ما بينهم.

وقد كانت لغة الجنوب، لغة معين وسبأ وحِميْر، الأوسع انتشاراً في تاريخ العرب القديم، وكانت أبجديّتها تتألف من تسعة وعشرين حرفاً، وتكتب بخطوط مستقيمة، تسمّى الخط المسند. ويرجّح المنقّبون أنّها تطوّرت عن الحروف السينائية (نسبة إلى سيناء) المشتقّة عن الهيروغليفية المصرية المتطوّرة.

أمّا عرب الشمال فلم يكن للغتهم العربية حروف، ولذلك استخدموا في كتابهم الحروف الآرامية، بالخط النبطي النسخي المستدير الشكل. هذا الخط هو الذي استخدمه عرب قريش لتدوين القرآن، فأصبح بذلك الخط العربي المعروف.

الأدب والشعر

نادرة هي الآثار الأدبية العربية العائدة إلى الجاهلية الأولى (وهي تختلف عن الجاهلية الثانية التي تسبق ظهور الاسلام مباشرة). وذلك عائد إلى كون هذه الآثار لا تزال مجهولة ومدفونة تحت الرمال. وقد عُثِر في حفائر صنعاء على ألواح مكتوبة بالخط المسند وفيها أدعية دينية وصلوات.

أما الأدب الجاهلي فقد وصل إلينا عن طريق الرواة، وكان معظمه من الشعر. وكان الشاعِر الجاهلي يعتبر الناطق بلسان قبيلته، بأمجادها يفاخر، ومعاركها وأيام انتصاراتها يؤرّخ. ولعلّ المعلقات السبع هي إفضل ما انتقل إلينا من شعر الجاهلية الثانية.

وإذا أردنا أن نتحدّث عن العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، فإنّ اهتمامنا ينصب على المناطق الوسطى والشمالية والشرقية من شبه الجزيرة على نجد والإحساء والحجاز ومكة. أما المناطق الجنوبية فإنّنا نتطرّق إليها بشكل موجز، وهي تشمل اليمن وعمان. إذ أنّ مفتاح العربية السعودية قبل الإسلام يفك لغز المناطق الشمالية والوسطى والشرقية.

كانت حياة هؤلاء الجماعة غاصة بالحرمان، ففي الشتاء القارس تهلك صغار الإبل وتجوع الماشية وتجف ضروع النوق. وكان الحرمان يتربّص بالبدوي في الصيف القائظ أيضاً، بحيث تنفذ حتى الاحتياطات الشحيحة من

التمر والحبوب، فيقتات فقراء البدو بالجذور والثمار والبرية، ويهلك الكثيرون بسبب الجوع. وكانت المقابر تقع عادة قرب مواقف البدو الصيفية.

إنّ الخيول العربية الشهيرة التي هي موضع افتخار لدى أصحابها وحسد لدى سواهم، كانت تستخدم للأغراض الحربية فقط وللإستعراضات. وفي رحلات القوافل الطويلة الأمد كانوا يأخذون دوماً احتياطياً من المياه لأجل الخيول أو يسقونها لبن الابل.

أمّا الرّعاة الذين يمارسون في الغالب أو بصورة أساسية تربية الأغنام والماعز فلم تكن لديهم إمكانية كبيرة للترحل في الأماكن الخالية من المياه. ولذا كان ترحالهم لا يتجاوز بضع مئات من الكيلومترات. وكان من اللازم أن يعثروا على مصادر للمياه قرب المراعي.

إنّ المسافات غير البعيدة نسبيّاً للترحال في الأماكن التي توجد فيها مصادر مائية ثابتة قد مكّنت رعاة الضأن من ممارسة الزراعة. فكانوا يقطعون الترحال في شهور الأعمال الزراعية لكي يعتنوا بالنخيل أو بحقول الحبوب. وغدا العمل الزراعي رئيسياً بالنسبة لقسم من رعاة الضأن.

واقترن العمل الزراعي بالرعي البدوي في شمال نجد: بسبب العرى الوثقى التي تربط بين فخذي الشمريين، نجد أنّ سكّان القرى ما يزالون يتشبّثون لدرجة معيّنة بتقاليد وعادات الحياة البدوية، في حين يزاول البدو أعمالاً تعتبر عادة أموراً غير لائقة بهم. فإنّ قسماً كبيراً من الأولين يترحلون في الربيع مع قطعانهم وخيولهم ويعيشون في البادية، وبعضاً من الوقت في بيوت الشعر، في حين تمتلك عوائل بدوية كثيرة بساتين النخيل وحقول الحبوب، التي تفلحها بنفسها.

كما أنّ كل واحد من أفخاد قبيلة حرب الحجازية، كان يمتلك عدة مشارب في بقعة خصبة يزرعون فيها الهرطمان والشعير، ولكنهم يعيشون في بيوت الشعر ويقضون أكبر قسم من العام في البادية.

ولم تكن توجد بين رعاة الإبل الرحل ورعاة الضأن شبه الرحل والحضر حدود معيّنة فيما يخص النشاط الاقتصادي عادة. فالكثيرون من

البدو رعاة الإبل بدأوا بممارسة الضأن، واستقرّ قسم من البدو الرحل فصاروا حضراً. وفي الوقت نفسه جرت عملية معاكسة هي تحوّل الحضر إلى بدو. إنّ التوازن غير المستقر بين البدو والحضر كان يتوقف على الظروف الطبيعية والتاريخية في الجزيرة العربية، وما كان بوسعه أن يتجاوز أطراً معيّنة. وكان فائض السكان الرحل ينتقل إلى الشمال. وإذا استقرّ هناك فهو يقطع الصلة نهائياً بماضيه البدوي.

وكانت الحرف والصنائع المنزلية البدائية عند الفلاحين الحضر تسدّ حاجاتهم المحدودة جداً. لقد كانوا يضفرون السلال والأكياس والحصر من سعف النخيل ويفتلون من أليافها الحبال والأعنة، ويستخدمون جذوعها في صنع الأدوات الزراعية وفي بناء المساكن، وكانوا يصنعون الأواني الخرفية البدائية والأنسجة الصوفية القطنية.

وفي الوقت نفسه، كان يصل إلى السوق قسم كبير من منتوج البدو الحرفي الأقل تطوّراً (الأنسجة الصوفية الخشنة والمصنوعات الجلدية).

وفي الواحات الكبيرة تطوّرت بعض الشيء الصنائع الحرفية المختصة. وكان بين الصنّاع حدادون ونحاسون ولحامون وصاغة ونجارون وصناع سلاح وبناة وعمال طلاء وأخصائيون في صنع العجلات للنواعير وإسكافيون وخياطون ومطرزون ومفصلون وصناع هواوين المرمر لدق القهوة وضافرو الحصر. وكان الصفارون وصناع الأسلحة يشكّلون أكبر فئة من الحرفيين.

ولم يصادف وجود ورشات ضخمة في الجزيرة العربية. وفي حالات نادرة فقط شكل الصناع ما يشبه التنظيمات الحرفية.

وكان من الصعب العثور في الجزيرة العربية على مدينة بالمعنى الكامل للكلمة، حيث لا تعتبر الزراعة المصدر الرئيسي لمعيشة أغلبية سكانها. وكانت مكة تمثل استثناءً واضحاً من القاعدة. وفي أغلب الأحوال كان مفهوم «الواحة الكبيرة» ومفهوم «المدينة» متطابقين في الجزيرة العربية.

ولم تكن الصنائع تحدّد ملامح الحياة الاقتصادية في المدن ـ الواحات في الجزيرة العربية، وكان دورها في حياة مجتمع الجزيرة مرتبطاً بالتبادل التجاري

المكثف ونابعاً من التقسيم العميق للعمل بين المزارعين والرعاة والرحل.

وهكذا كان لطبيعة البلاد ونوعية المناخ تأثير كبير على أنماط العيش عند العرب وتحديد نشاطاتهم الاقتصادية. ففي الوسط، حيث الصحارى والجفاف، فرض على العربي أن يحيا حياة البداوة والارتحال، وتربية المواشي. أمّا في الجنوب، حيث يجود المناخ وتغزر الأمطار، فقد استقرّ العربي وتعاطى الأعمال الزراعية وتفنّن في طرق الري، ولعلّ سدّ مأرب المُقام في اليمن لحصر المياه وتوزيعها على الأراضي الزراعية، هو أصدق دليل على ما وصلت إليه التقنيّة الزراعية في تلك البلاد.

ومارس عرب الجزيرة التجارة يساعدهم على ذلك أمران: موقع بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ أقدم العصور، وكثرة الطرق التجارية التي تخترق بلادهم. فكان العرب يقومون بدور الوسيط التجاري بين شعوب حوض البحر المتوسط، وشعوب المحيط الهندي، ويسيطرون على طرق التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر، والخليج العربي، ويحتفظون لأنفسهم بأسرارها. كما كانوا يتحكمون بطرق القوافل البرية. وقد بقي أهل اليمن أسياد التجارة العربية، حتى سقوط مملكة حمير في القرن السادس الميلادي. وبعد ذلك انتقلت الزعامة، ولكن على نطاق أضيق إلى مدن الحجاز الثلاث: مكة، يثرب والطائف. وأمّا الأسواق فقد كثرت وتنوّعت في أنحاء الجزيرة لتسهيل عمليّات التبادل والتباري الأدبي، والتنافس القبلي، والتلاقي الاجتماعي، وكان أهمّها: عكاظ، عمان، دبي وعدن.

وإذا أردنا التدقيق، فإنّ الصناعة بمعناها الحقيقي لم تعرف طريقها إلى عرب الجزيرة إلاّ نادراً وفي ممالك الجنوب اليمني. ولذلك أسباب عديدة أهمّها قلّة المواد الأوّلية، ونفور العربي من العمل الصناعي واعتباره من العيوب. وقد اقتصرت صناعتهم على دبغ الجلود وحياكة الثياب، وصقل السيوف.

الحالة الاجتماعية

على الرغم من تعدّد كياناتهم السياسية في الجزيرة وتنوّع الحالة الاقتصادية، ظلّت القبيلة الإطار الذي يتحرّك العربي داخله سياسياً، وينتظم إجتماعياً،

وذلك لأنّ الشعور القبلي كان آنذاك يطغى على أيّ إحساس أو ولاء آخر.

الحياة في القبيلة

القبيلة عبارة عن أسرة كبيرة تفرّعت إلى ما كان يسمّى البطون والأفخاذ والعشائر. يرئسها شيخ يراعى في اختياره شرط السن والتجربة والشجاعة وسداد الرأي والكرم. وأفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة يرتحلون معاً ويقاتلون معاً. وإذا ارتكب أحدهم جناية حملتها قبيلته، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة. شعارهم: «أنصر أخاك ظالماً كان أم مظلوماً». وكان الفرد يؤمن بتقاليد قبيلته وعاداتها التي يتعصّب لها ويعتزّ بها ويفاخر، ولذلك كانت العصبية القبيلة تحلّ محل الروح القومية. وهذه العصبية هي التي جعلت العلاقات في ما بين القبائل علاقات عداوة واقتتال وغزو في معظم الأحيان.

أنواع التسلية عند العرب

لقد شاعت عند العرب القدماء بعض أنواع التسلية كالصيد وسباق الخيل والجمال ولعب الكرة والأرجوحة. كما ولعوا بلعب الميسر ولوعاً كبيراً.

الخط العربي

إنّ الخط العربي هو كناية عن رسوم وأشكال تدل على الكلمات المسموعة، وليس لدينا من آثار العرب في الحجاز ما يدلّ على أنهم عرفوا الكتابة لغلبة البداوة على طبائعهم. على أنّ الذين اتصلوا منهم بإخوانهم عرب الشام أخذوا عنهم الكتابة، فأخذ بعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي الذي تولّد عنه الخط النسخي (الدارج) وبعضهم الآخر بالحرف السرياني الذي أعطى الخط الكوفي.

وعند ظهور الإسلام وتزايد الحاجة إلى تدوين كلام الله، استخدم العرب المسلمون الخط الكوفي، المأخوذ عن عرب العراق، في تدوين الآيات القرآنية، والنصوص الدينية، بينما استخدموا الخط النبطي النسخي لكتابة المراسلات والمكاتبات العادية.



سباق الجمال

الموسيقى والغناء

عرف عرب الحجاز في جاهليتهم الغناء على صورة حداء للإبل، وترنيم لطرد وحشة الوحدة. وعرفوا كذلك النقر على الدفّ كإيقاع موسيقي.

وبعد الإسلام عندما استولى العرب على الكثير من الأقطار، وتدفقت عليهم الثروة مالوا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية، واستملاء الفراغ. وأدرك الموالي من الفرس والروم ما عند العرب من ميول جديدة، فقصدوا الحجاز يطربون أغنياءه بالغناء والعزف على العيدان والطنابير والمزامير.

كما اهتمّ العرب بنقل العلوم الدخيلة إلى لغتهم، وبنقل الكثير من كتب الموسيقى عن اليونانية، والهندية، والفارسية. أخضعوها للدرس والتحليل والتهذيب ثم زادوا عليها فصارت على أيديهم فنّاً متميّزاً خاصاً بهم وضعوا فيه الكثير من المؤلفات والألحان.

العلوم

من المرجّح أن العرب ألمّوا بالرياضيات والهندسة، والجغرافية، والفلك كما أحرزوا بعض التقدّم في علم الطب، ولكنهم خلطوه بالسحر، وأكثروا فيه من الاعتماد على الكيّ بالنار. كذلك أجادوا علوم الفراسة والقيافة (اقتفاء الآثار) والريافة (معرفة مواطن الماء).

حياة العرب الدينية

تعدّدت الديانات عند العرب قبل الإسلام، وتأثرت بمعتقدات الأمم التي اتصلوا بها أو جاوروها. ولذلك عرفوا في جاهليتهم الديانات السماوية كالمسيحية واليهودية، وغير السماوية المجوسية والصائبة. إلاّ أنّ الوثنية كانت الغالبة والأوسع انتشاراً.

١ ـ **الديانة الوثنية**: شاعت الوثنية شيوعاً كبيراً في بلاد العرب، وقامت على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة. ولمّا كان العربي يعتقد أنّ لهذه المظاهر تأثيراً بالغاً على حياته، فقد حرص على استرضائها، واتخذ لها اشكالاً مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار منحوتة تمثّل بشراً وحيوانات، وأخرى غير منحوتة. وكان العرب يطوفون حول هذه الأصنام، ويتاجرون عندها، ويعتبرون المكان الذي فيه المعبود حرماً. وكان بعض كبريات القبائل، يعبد أصناماً معيّنة، عرفت بالأصنام الخاصة وزاد عددها على الثلاثمائة، أهمها: ودّ، سواع يفوت، يعوق، هبل، بعل، جهار.

أمّا الأصنام العامة التي كانت تعبدها أيضاً معظم القبائل فهي: الّلات والعزّى ومناة. الأولى عبارة عن صخرة مربّعة بيضاء في الطائف ترمز إلى فصل الصيف، بينما كانت الثانية عبارة عن ثلاث شجرات في وادي نخلة، ترمز إلى الخصب. أمّا مناة فهي أقدم الأصنام عند العرب، وهي عبارة عن حجر أسود أُقيم له معبد خاص، على الطريق بين مكة ويثرب، وهي ترمز إلى الموت والقضاء والقدر.

٢ ـ **الديانة المسيحية**: كان لا بدّ للمسيحية من أن تنتشر في بلاد العرب وتجتذب إليها العديد من قبائلهم مثل بني أسد وتغلب وتميم وقضاعة

وكندة، وذلك لوجود دولتين مسيحيّتين في جوار بلاد العرب هما: مملكة الأحباش في الجنوب، والدولة الرومانية ثمّ البيزنطية في الشمال. وقد انتشر المبشّرون المسيحيّون في سائر أنحاء الجزيرة، وأحرزوا نجاحاً بارزاً في نجران بشكل خاص. كما تعرّفت مدن الحجاز إلى التعاليم والتقالد المسيحية بفضل اتصالها الدائم بالدويلات العربية المسيحية في الشمال وعلى الأخص الغساسنة والمناذرة.

٣ ـ **الديانة اليهودية**: لم تصل اليهودية إلى مثل ما وصلت إليه المسيحية من اتساع ونفوذ في بلاد العرب. وذلك عائد لكونها لم تدخل البلاد بفضل التبشير، بل حملها قوم من اليهود لجأوا إلى الجزيرة العربية بعدما اشتدّ الضغط الروماني عليهم في فلسطين، وخاصة في عهد الامبراطور تيطس الذي هدم الهيكل وشرّد اليهود المتآمرين على سلامة الدولة. قصد هؤلاء اللاجئون اليهود بعض مدن اليمن والحجاز، وعملوا في التجارة وأحياناً في الزراعة. وتأثّرت بالدين اليهودي بعض القبائل العربية فاعتنقته وكان أهمّها: بنو نمير، وبنو كنانة.

إلى هذا، في مطلع التاريخ الميلادي، انتشرت اليهودية بين الحميريّين وتعصّب لها ملكهم ذو نؤاس الذي أخذ يضطهد المسيحيين، فاستغاث هؤلاء ببني دينهم الأحباش الذين استجابوا للدعوة، وهزموا ملوك الحميريين سنة ٥٢٢ م، وأجلسوا على العرش أسرة حبشية تحالفت مع يوستنيانوس امبراطور الروم. وعلى الأثر انحاز الفرس إلى الحميريين المخلوعين، وطردوا الأحباش، وأقاموا حكماً فارسياً (٥٧٥ م) دام حتى الفتح الإسلامي.

وكان الحاكم الحبشي أبرهة قد أنشأ كنيسة ضخمة في مدينة صنعاء، وأراد أن يجذب الحجّاج العرب إليها بدلاً من الكعبة، فتقدم على رأس جيش زاحفاً إلى مكة ليهدم الكعبة، ولكنّه عجز عن تحقيق غايته. وكان ذلك سنة ٥٧٠ م.

الصائبة والمجوسية

أخذتا طريقهما إلى بلاد العرب بتأثير المجاورة مع الفرس، وهما مذهبان قائمان على أسس فلكية غير أنّ تأثيرهما بقي محدوداً.

الفصل الثاني

العرب ومواطنهم
في
شبه الجزيرة

عرب الشمال

نريد بعرب الشمال على الإجمال الاسماعيلية أو العدنانية، في اصطلاح كتاب العرب، ومنازلهم شمالي بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالاً إلى مشارف الشام والعراق. وهم يرجعون بأنسابهم إلى اسماعيل بن ابراهيم. وحكاية اسماعيل عندهم مبنية على ما ذكرته التوراة من إخراجه وأمّه إلى برية بئر سبع وسكناه برية فاران، وأنّ أولاده آباء القبائل التي قامت ما بين حويلة وشور، وكانت شور عند برزخ السويس وحويلة خولان في شمالي اليمن، وبينهما نجد والحجاز وتهامة ومديان وجزيرة سيناء.

أما العرب فهم يجعلون المكان الذي أقام فيه اسماعيل وأمه، مكة بدل برية فاران. ويقولون إنّ اسماعيل أقام بمكة، وتزوّج امرأة من جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد فولدت له ١٢ ولداً. ولا رواية ثالثة عن أصل أولئك العرب. والروايتان تقولان إنّ إسماعيل نشأ وترعرع في البادية، وأنّه كان رامياً بالقوس شأن أهل البادية، وأنّه خلف ١٢ ولداً، اسماؤهم تطابق أسماء بعض قبائل الشمال، وإنما اختلفوا في المكان الذي أقام فيه اسماعيل. فالتوراة تقول إنه برية فاران أو جبل فاران، والعرب يقولون إنه مكة والحجاز. وكلاهما عند العقبة شمالي جزيرة سينا. ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا أنّ جبال مكة أو جبال الحجاز تسمّى أيضاً فاران، فيكون المراد أنّ البرية التي أقام فيها إسماعيل هي برية الحجاز، أو أنه أقام حيناً في سيناء، ثم إلى الحجاز وسكن هناك وتزوّج. والتوراة لم تذكر اسماعيل بعد خروجه من بيت أبيه إلاّ عند حضوره دفنه.

إنّ العمالقة وسائر القبائل البائدة كان مقامها في شمال جزيرة العرب، إلى مشارف الشام وضفاف الفرات وشواطىء النيل. وقد ذهبت الدولة بتوالي الأجيال. أولئك العرب شعوب مشتركة في الأنساب، ولهم عادات وأخلاق وأحوال تميّزه عن عرب اليمن أو القحطانية. وعرفت قبائل الشمال في تاريخ العهد القديم باسم الإسماعيلية، نسبة إلى اسماعيل. والعرب يسمّونها أيضاً عدنانية، نسبة إلى عدنان، أحد أعقاب اسماعيل.

الفروق بين القحطانية والاسماعيلية

أ ـ نظام الاجتماع

العرب هم البدو، وهذا التعبير يصدق على عرب الشمال، فهم أهل خيام وإبل ورحلة وغزو، لا يستقرون في مكان، لأن معاشهم من كسب الإبل والقيام عليها في ارتياد المراعي وانتجاع المياه والنتاج والتوليد، وغير ذلك من مصالحها، والفرار بها من أذى البرد عند التوليد إلى القفار ودفئها، وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء. لا يبنون بيوتاً ولا ينشئون مدناً، بخلاف أهل اليمن فأكثرهم أصحاب قصور ومحافد ومدن وأسوار ومغارس وحدائق.

٢ ـ اللغة

إنّ لغة اليمن أو عرب الجنوب تعرف بلغة حمير، وهي تختلف كثيراً عن لغة عرب الحجاز أو الشمال، وإن كانتا من أصل واحد. ولكن الفرق بينهما يدل على تباعد أصحابهما في العادات والأخلاق، فهما تختلفان في الإعراب وفي الضمائر وفي كثير من أحوال الإشتقاق والتصريف.

٣ ـ الأديان

يشترك هذان الشعبان في كثير من ضروب العبادة، وفي عبادة بعض الأصنام، ولكنهما يختلفان في الإجمال. فآلهة اليمن أقرب إلى معبودات البابليين، وعندهم عشتار وإيل وبعل وغيرها. وأما الشماليون فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك، كاللات والعزى ومناة وهبل وغيرها.

أخبار عرب الشمال

إنّ أخبار عرب الشمال في الطور الثاني تتصل بأقدم تاريخ تلك الجزيرة، لا سيّما إذا اعتبرنا حكاية اسماعيل بدء تاريخ جديد لأولئك العرب. لأنّ تاريخ الإسماعيلية يبدأ في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والغالب أنهم كانوا خاملي الذكر، لأنهم لم ينشئوا دولاً، وكانت دول العرب الأخرى في اليمن ومشارف الشام والعراق وغيرها تستخدمهم في التجارة بين ممالك ذلك الزمان، ويعبرون عنهم تارة بالإسماعيلية، وطوراً بقيدار أو غيرها.

وأقدم ما ذكره العرب عن أخبار الاسماعيلية مأخوذ عن اليهود، وعليه صبغة عربية، وخلاصته أنّ اسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جرهم وآخرهم مضاض بن بشير، فتزوّج اسماعيل من بناتهم وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم، وأولاده هم العرب الاسماعيلية، ويسمونهم المستعربة لأنهم دخلوا في العرب وهم ليسوا منهم، كما فعل القحطانية في اليمن قبلهم. وأشهر أولاد اسماعيل قيدار، واسمه وارد في التوراة. وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى ولد عدنان. والعرب مختلفون في عدد الآباء بين اسماعيل وعدنان، فقال بعضهم إنهم أربعون أباً، وقال آخرون انهم عشرون أو خمسة عشر أو أقل من ذلك. ومن عدنان تناسل العرب الإسماعيلية، فعندهم أن عدنان ولد عكا ومعدا، وهو أبو القبائل العدنانية أو الاسماعيلية.

وأقدم ما علمنا عن أخبار هذه القبائل وصل إلينا عن طريق التوراة، فقد جاء في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف، بعدما طرحه إخوته في البئر قوله: «ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا فإذا بقافلة من الاسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محملة نكعة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون لينزلوا إلى مصر»، وكان ذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وكان الاسماعيليون يحملون البضائع إلى مصر وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه في مصر.

ثم جاء ذكرهم في سفر القضاة بعد ذلك بخمسة قرون وهم يحاربون الاسرائيليين. ويسمّون هناك تارة «بني المشرق»، وطوراً «الاسماعيليين» وبعد ذلك بخمسة قرون أخر ذكر أولئك العرب في سفر أشعيا باسم «قيدار» وهو

في التوراة ابن اسماعيل فيراد باسمه قبيلة الاسماعيلية على الأقل، وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم.

وبعد أشعيا بقرن وبعض القرن (في القرن السادس قبل الميلاد)، جاء نبوخذنصر - الذي يسميه العرب بختنصر - واكتسح شمالي جزيرة العرب وغلب على - الاسماعيلية - أو بني قيدار وبني المشرق في البادية. وقد جاء ذلك الخبر في أسلوب التحذير أو النبوءة، قال: «على قيدار وممالك حاصور التي ضربها نبوخذ نصر ملك بابل وهكذا قال الرب قوموا اصعدوا إلى قيدار ودمروا أبناء المشرق إنهم يأخذون أخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم وإبلهم وينادون عليهم بالهول من كلّ جهة».

وجاء في سفر القضاة: «قال لهم جدعون: إني أقترح عليكم أمراً واحداً يعطيني كل واحد منكم خرصاً من غنيمته فقد كانت لهم خرصان من ذهب لأنهم اسماعيليون، فقالوا: لك ذلك، وبسطوا رداء فألقى عليه كل امرىء منهم خرصان غنيمته، وكان وزن الخرصان الذهب التي طلبها ألفاً وسبع مائة مثقال ذهب ما خلا الآهلة والنطفات والثياب الارجوانية، التي كانت على ملوك مدين وما خلا القلائد التي كانت في أعناق جمالهم».

أمّا العرب فأقدم ما ذكروه من أحوال الاسماعيلية إنّما يأتي متمّماً لأخبار التوراة، ولعلّهم أخذوه عن اليهود أو بنيه على روايتهم، نعني غزوة بختنصر العرب. ثم سكت المؤرخون عنهم دهوراً، كان بختنصر أضعفهم فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت أخبارهم. ثم تكاثروا وعادوا إلى الظهور، في أوائل النصرانية أو قبيلها، وهم قبائل وأمم ذات شأن ملأوا تهامة وتفرّقوا فيها إلى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها، في أزمان متفاوتة القبيلة بعد القبيلة وترجع كلّها إلى خمسة أصول لكلّ أصل منها فروع عديدة!

الدولة القحطانية

من تاريخ سبأ وحمير نعرف أنّ القحطانيين ملكوا اليمن بضعة عشر قرناً، وكانوا دولاً تجارية قليلة الغزو والحرب، فكان القتل فيهم قليلاً وكانوا يتكاثرون حتى تضيق بهم مواطنهم، وهم عرضة للقحط من قلّة المطر أو

انفجار الأسداد، وكانوا ينزحون بطوناً وأفخاذاً يطلبون الرزق في أطراف جزيرة العرب شرقاً وشمالاً، فينزل بعضهم اليمامة أو البحرين أو عمان أو الحجاز أو مشارف الشام أو العراق، فحيثما آنسوا فرجاً استقروا وتناسلوا بدواً أو حضراً، وقد تطول آجالهم حتى ينشئوا الدول ويبنوا المنازل أو تقصر فيبيدون بالحرب أو غيرها. ولقلّة الكتابة عندهم لم يصل إلينا من أحوال النازحين إلاّ القليل، وهذا القليل مشوّش مضطرب لضياع أخبارهم واختلاطها لبعد عهدها. وهذا هو سبب اختلاف الرواة بين أن يرجعوا بها إلى حمير أو كهلان أو معد أو العمالقة أو غير ذلك ممّا يعسر تحقيقه. فننظر في تلك الدول أو القبائل من حيث تأثيرها في شؤون التاريخ.

فالدول العربية التي ظهرت في شمال جزيرة العرب من الطبقة الثالثة، غير قبائل عدنان التي تقدم ذكرها، بضع دول يعدّها مؤرّخو العرب من بني قحطان، وأهمها: دول الغساسنة في الشام والمنذرة في العراق، وكندة في نجد وما يليها. ويقول نسابو العرب أنّ هذه الأمم وبضع عشرة أخرى من القبائل التي عاصرتها في شمالي جزيرة العرب ترجع بأنسابها إلى كهلان بن سبأ بن قحطان. فهذه القبائل وعددها ١٩ قبيلة لكلّ منها بطون، وأفخاذ، وعمائر وعشائر لا يهمّنا منها في هذا المقام إلاّ التي أنشأت الدول وكان لها دور في التاريخ، وهي غسان ولخم وكندة.

دولة الغساسنة

يزعم نسابو العرب أنّ الغساسنة لم يرحلوا من اليمن إلى الشام رأساً، بل أقاموا حيناً في تهامة بلاد الأشعريين وعك، على ماء يُقال له غسان، فنسبوا إليه. وكان هذا المكان معروفاً هناك حوالي تاريخ الميلاد، وقد ذكره اليونان في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد في جملة بلاد تهامة وشواطىء البحر الأحمر. أمّا القبيلة فذكرها بطليموس في أواسط القرن الثاني للميلاد، قال: «إنهم يقيمون على شواطىء جزيرة العرب الغربية نحو ما هو الآن تهامة». فإذا صحّ انتساب الغساسنة إلى كهلان كانوا في الحقيقة من عرب تهامة العدنانيين أو غيرهم ممّن ضاعت أنسابهم.

على كلٍ، نزل الغساسنة مشارف الشام وفيها الضجاعم من قضاعة فغلبوهم على ما في أيديهم، وأنشأوا لأنفسهم دولة تحت رعاية الروم ـ فيما هو الآن البلقاء وحوران ـ عُرفت بدولة الغساسنة أو بني غسان، فتحضروا بتوالي الأجيال وعمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وكانت عاصمتهم بصرى في حوران، وتُعرف أنقاضها باسكي شام، وكان فيها دير بحيراء الراهب.

وعلى ما جاء في الكتب، فإنّ ملوك غسان كانوا ٣٢ ملكاً حكموا نحو ستمائة سنة.

الروم والعرب

فتح الاسكندر الشام والعراق في القرن الرابع قبل الميلاد، وأراد أصحابه اكتساح جزيرة العرب، فامتنعت عليهم لوعورة الطرق إليها وبداوة أهلها، وقاتلوا النبطيين فارتدوا عنهم خائبين، وتبيّن لخلفاء الاسكندر على الشام أنّ اخضاع أهل البادية لا يتيسّر لهم، فعمدوا إلى مسالمتهم للإستعانة بهم في نقل المتاجر أو حماية الطرق، أو استنصارهم على جيرانهم الفرس أو غيرهم. ودخلت الشام في حوزة الرومان في القرن الأول قبل الميلاد، وبادية الشام في حوزة الأنباط ومن والاهم وحالفهم من العرب. ولم يغلبهم الروم إلاّ لتحضرهم وإركانهم إلى السكينة والرخاء، فتفرّقوا في مشارف للشام والعراق.

أما بدو العرب في تلك الضواحي فلم يغلبهم الروم ولا غيرهم، فكانوا يضايقون الدولة فينزلون أطراف المدن للغزو، أو يتعرّضون للقوافل بالنهب، كما كان البدو يفعلون فيما مضى بقوافل الحج وغيرها. ويئس الروم منهم فعمدوا إلى مسالمتهم لاتقاء شرهم، وأشهرهم يومئذ الضجاعمة، بنو سليح من قضاعة، وكان يحكم العراق وفارس ملوك الطوائف بعد الاسكندر، يستبد كلّ منهم بقسم منها، يشتغلون بذلك عن مناوأة الروم وأعدائهم القدماء. حتى إذا نشأت الدولة الساسانية في أول القرن الثالث للميلاد، وجمعت كلمة الفرس تحت لوائها، أصبح الروم يخافونها على بلادهم، لما بينها من

المنافسة القديمة فازدادت رغبتهم في تقريب العرب، ليس لاتقاء شرهم فقط، بل للإستعانة بهم على اولئك المنافسين.

واتفق نزوح الغساسنة نحو الشمال، كما تقدّم، وقد نزلوا البلقاء، ومنها الضجاعمة، وغيرهم من قبائل العرب، وتنازعوا على المقام هناك، وتنافسوا في النفوذ على أهل البادية، فظهر الغساسنة، فلمّا احتاج الروم إلى نصرتهم استنصروهم وقربوهم، فتنصروا بتوالي الأجيال وأصبح لهم شأن في حروب الروم والفرس.

الفصل الثالث

أيام العرب
قبل الاسلام

العدنانية والدول المعاصرة

يراد بأيام العرب الوقائع التي جرت بين القبائل البدوية في شمالي جزيرة العرب في الطور الثاني، وأهم هذه القبائل من عدنان، وقد تفرّقت بأحيائها وبطونها وقبائلها، وكان كل منها مستقلاً بأحكامه وأعماله، تتخاصم وتتحارب على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ويندر أن تجتمع تحت راية واحدة، يدل ذلك على أنها لم تجتمع في الجاهلية كلّها إلاّ ثلاث مرات.

على أنّ بعضها كان يدخل في رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة على يد بعض عمال هذه الدول من العرب، فتدخل في حوزة الفرس على يد المناذرة، أو الروم على يد الغساسنة أو حمير على يد كندة. ولكنها لم تكن تخضع في الحقيقة لدولة ما، إلاّ لمصلحة مشتركة بين الاثنين، ولا تثبت على ولائها إلاّ لمطمع.

وكان أكثر خضوعها لدولة حمير باليمن، لأنها كانت أكبر دول العرب. أمّا الدول العربية الصغرى فكانت علاقتها معها على الأكثر على سبيل المحالفة. فالمناذرة مثلاً كانوا يقرّبونها ليستعينوا بها على الغساسنة، وكذلك كان يفعل هؤلاء للإستعانة بها على المناذرة، شأن الدول المتحضّرة في ذلك العهد من الإستعانة بالبداوة على الحضارة.

والعدنانية كانوا أشداء، ولو أنهم اتحدوا لم تقو عليهم دولة، ولكنهم كانوا لا يبرحون في انقسام وخصام فيستظل الضعيف منهم بدولة تحميه من أخيه القوي.

إستقلال عدنان عن اليمن

رسخ في اعتقاد البدو بتوالي الأجيال أنّ الإذعان لدولة حمير فرض واجب، وكان النزاع بينهم يزيدهم تعلقاً بذلك، حتى رأوا ما أصابها في أثناء حروبها مع الحبشة، فتبيّن لهم ضعفها عن حفظ استقلالها وذهبت هيبتها من قلوبهم، فأخذوا يفكرون في الخروج عن سيطرتها والإمساك عن دفع الأتاوة لها، وأحسّوا بالحاجة إلى الاتحاد في هذا السبيل، فاتحدوا. ولم يطل اتحادهم كما طال في الإسلام، إذ لم يكن الباعث عليه من قبيل الوجدان.

والفضل الأكبر في كسر قيد الأتاوة والخروج عن طاعة اليمن يعود لقبيلة ربيعة، لأن البادىء بكسر ذلك القيد منهم، وهو كليب الفارس الباسل المشهور، وكان معاصراً لزهير بن جناب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب وهما أكبر قبائل ربيعة. وفي أواخر القرن الخامس، توفي ربيعة أمير وائل، فخلفه ابنه كليب. . .

عرب عدنان

منازلهم في تهامة ونجد والحجاز: كانت العرب العدناية بادية أقامت في تهامة والحجاز ونجد، إلاّ قريشاً فقد تحضروا في مكة. وتقسم العدنانية أولاً إلى فرعين عظيمين: عك ومعد. أما عك فنزلت في نواحي زبيد جنوبي تهامة، وقد ذكرها اليونان فسمّوها Acchitac، وبقي من عك بقية إلى أيّام الإسلام، وليس لهم تاريخ يُذكر.

أما «معد» فهو البطن العظيم، ومنه تناسل عقب عدنان كلّهم. وإذا قال العرب «معد» يريدون القبيلة لا الرجل. فإذا صحت غزوة بختنصر كما ذكرها العرب، كانت معد قبيلة كبرى في القرن السادس قبل الميلاد. وانقسمت إلى فرعين كبيرين: نزار وقنص، والكثرة والنسل في نزار، وهم فروع عدّة أشهرها خمسة: قضاعة ومضر، وربيعة وأياد، وأثمار. وكانت منازلهم في تهامة والحجاز ونجد على هذه الصورة.

كانت مساكن قضاعة ومراعي أغنامه جدة من شاطىء البحر الأحمر فما

دونها شرقاً، إلى منتهى ذات عرق، وهي الحدّ بين نجد وتهامة، إلى حيز الحرم من السهل والجبل. وقبائل مضر أقامت في حيز الحرم إلى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد، وأقامت ربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة (بينه وبين مكة مسيرة يومين)، وبطن ذات عرق وما صاقبها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة. وأقامت أياد وأنمار معاً ما بين حد أرض مصر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها، وصار لقنص وغيره من ولد معد أرض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من البلاد.

وما زالت هذه القبائل في منازلها هذه بوفاق، كأنهم قبيلة واحدة في اجتماع كلمتهم وائتلاف أهوائهم، تضمّهم المجامع وتجمعهم المواسم، حتى وقعت الفتنة بينهم فتفرقت جماعاتهم وتباينت مساكنهم.. وتفرقت هذه القبائل كلّ على حدة.

الفصل الرابع

الدويلات
في
شبه الجزيرة العربية

بالعودة إلى التاريخ، لا بدّ لنا أن نتوقف عند أهم الدويلات التي تعاقبت على مسرح الأحداث وساهمت في تشييد البنيان الحضاري في تلك المنطقة. وهذه الدويلات هي:

١ ـ الدويلات الجنوبية

أ ـ الدويلة المعينية: قامت في منطقة الجوف السهلية بين نجران وحضرموت، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وامتدّ نفوذها شمالاً حتى بلغ جنوبي فلسطين وأعالي الحجاز. وقد سيطرت هذه الدويلة على طرقات التجارة الدولية آنذاك، وأقامت علاقات تجارية وثيقة مع مصر، وكان تجّارها يصدّرون البخور والعطور إلى المعابد المصرية.

ب ـ الدولة القتبانية: عاصرت الدويلة المعينية، وقامت عند الزاوية الجنوبية حول عدن، وسيطرت على طرق التجارة الدولية عند مضيق باب المندب. وفي القرن الثاني قبل الميلاد اندمج القتبانيون بالسبئيين وفقدوا استقلالهم.

ج ـ الدويلة السبئية: ينسب المؤرخون قيام هذه الدويلة إلى عبد شمس ابن يشحب الذي لقّب بسبأ، لأنه أكثر من الغزو في أنحاء الجنوب العربي وسبا خلقاً كثيراً. وقد جاء عبد شمس على رأس قبائل من البدو، وفدت من الشمال وسكنت اليمن إلى جوار المعنيين. ثمّ احتلّت عاصمتهم مأرب، واستقرّت في صرواح، ومنها مدّ السبئيون نفوذهم إلى ديار حضرموت وقتبان. إتخذ ملوكهم الدين وسيلة للحكم، وخاضوا الكثير من الحروب المحلية، وشادوا الحصون والهياكل، وبنوا سدّ مأرب العظيم في القرن

السابع قبل الميلاد. وسيطروا على التجارة البحرية بين الهند ومصر، وعلى الطرف الجنوبي من طريق القوافل إلى سوريا وفلسطين عبر الحجاز.

د ـ الدويلة الحميرية: حوالي السنة ١١٥ ق.م. قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب العربي، هي مملكة الحميريين، فهاجمت مملكة سبأ وغلبتها على أمرها، ثم سيطرت على طرق التجارة. وفي عام ٢٥ ق.م. غضب أغسطس الروماني لهذا الوضع، فسيّر جيشاً بقيادة «جالوس» للإستيلاء على مأرب، ولكنه فشل في تحقيق مهمته، وتبعه جيش آخر استطاع أن يستولي على عدن، وبذلك انتقلت السيطرة على طرق التجارة إلى روما. في هذه الأثناء، كان قسم من الحميريين قد عبروا البحر الأحمر واستعمروا الحبشة ونشروا ثقافتهم بين الأحباش والزنوج.

٢ ـ الدويلات الشمالية

أما أهم الدويلات التي قامت في الشمال فكانت:

أ ـ الدويلة النبطية: هاجر الأنباط من وسط شبه الجزيرة العربية حوالي



سلسلة من أضرحة مدائن صالح

سنة ٥٠٠ ق.م. واستقرّوا في المنطقة الممتدة من نهر الفرات إلى البحر الأحمر، ووصلت حدود دولتهم إلى دمشق. وكانت عاصمتهم البتراء. تكلموا لغة عربية شمالية واستخدموا الخط الآرامي النبطي الذي استعمل في تدوين لغة القرآن.

حافظ النبطيّون على استقلالهم في العهد الهليني، وسيطروا على طرق التجارة، وبقوا كذلك في العهد الروماني. إلاّ أنّ الامبراطور «تراجان» هاجمهم وقضى على دولتهم سنة ١٠٦ م. وأنشأ مكانها المقاطعة العربية التي أحاط حدودها بسور من الحصون المنيعة.

ب ـ الدولة التدمرية: إلتزم التدمريون الحياد في النزاع القائم بين الرومان والفارتيين، فعززوا بذلك مركزهم التجاري، ووسعوا مدى علاقاتهم مستفيدين من وجود الأباطرة العرب على عرش روما. وفي سنة ٢٦٠ م. استطاع ملك تدمر أذينة بن الميذع أن يحارب الفرس ويبسط سيطرته على كل سوريا، ويحمل الامبراطور الروماني غلينوس على الاعتراف به أمبراطوراً على المشرق. وبعد وفاته سنة ٢٦٨ م. تولّت الحكم زوجته زينب أو زنوبيا (الزباء) وبلغت تدمر في عهدها أقصى حدودها. فقد حاولت ضم مصر إلى دولتها العربية، وحاربت الرومان



فتحة خارجية لشق في صخور أحد الأضرحة

وانتصرت عليهم عند الفسطاط سنة ٢٧٠ م. فاعترف كلوديوس بهذا النصر وأقرّ بضم مصر إلى تدمر، بما في ذلك مدينة الإسكندرية، الأمر الذي أثار الرومان وجعلهم يصمّمون على التخلص منها. وقد جهّز أورليانوس جيشاً كبيراً حاربها وانتصر عليه وضمّ أراضيها إلى روما. وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال.

ج ـ **دويلة الغساسنة:** كانت أراضيهم تشمل المناطق الواقعة شرقي نهري العاصي والاردن، وتمتد من شمالي العراق إلى خليج العقبة. تحالفوا مع الروم في عهد يوستنيانوس حوالي العام ٥٢٩ م. فاستخدمهم هؤلاء لصد غارات الفرس على حدودهم الشرقية. وكان الحارث الخامس أشهر ملوكهم حيث بسط نفوذهم على كلّ العرب في سوريا. وانضم الغساسنة إلى الدولة العربية الإسلامية سنة ٦٣٦ م.

د ـ **اللخميون:** وقد عرفوا أيضاً بالمناذرة، أسس دولتهم نصر بن ربعة بن لخم في الحيرة على الفرات، على مقربة من بابل، وكان ذلك في القرن الثالث الميلادي. إشتدّ التنافس بينهم وبين الغساسنة على طرق التجارة في البادية، فاغتنم الفرس هذه الفرصة وساندوا اللخميين واتخذوهم عمالاً لهم في العراق، يردون عن حدودهم الغربية غارات الروم والغساسنة. كان النعمان الثالث (٥٨٠ ـ ٦٢٠) أشهر ملوكهم، أراد أن يستقلّ عن الفرس، فاستدرجه كسرى الثاني إلى عاصمة المدائن، وخلعه عن العرش، فغضب العرب لهذا التصرّف، وهاجموا الفرس سنة ٦١٠ م. وانتصروا عليهم في موقعة ذي قار.

٣ ـ دويلات الوسط

وفي وسط الجزيرة العربية قامت أيضاً بعض الكيانات السياسية:

أ ـ **الكنديون:** وهم من عرب الجنوب، نزحوا إلى الشمال سنة ٤٨٠ م. بقيادة ملكهم حجر بن عمرو. إستقرّوا في معظم بلاد نجد وتوسعوا شمالاً باتجاه العراق والشام وجنوباً باتجاه عمان. نشب خلاف بينهم وبين

بعد الحملة على مكة
قضت الطير على
جيش ابرهة



حملة ابرهة عام ٥٧٠
وسمّيت بعام الفيل
لاستعمالها الفيلة

مناذرة الحيرة أدّى إلى استيلائهم على الحيرة في الفترة ما بين ٥٠٥ و٥٢٩ م.

ب ـ جمهورية مكّة: تقع مكّة في تهامة جنوب الحجاز، على طريق القوافل بين مأرب وغزة، وعلى الرغم من أنها كانت في أول عهدها مقاماً دينياً، فقد برع أهلها في شؤون التجارة وما يتعلق بها من مرافق ووظائف. ومع الزمن أصبحت مكّة جمهورية تجارية، يرئسها الموسرون من أكابر قريش الذين أتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاهاً ووسائل للترف على أوسع نطاق. وابتنى قصي مؤسس مجد قريش، في أواخر القرن السادس الميلادي، دار الندوة ليجتمع فيها كبار أهل مكّة تحت أمرته للتشاور في شؤون المدينة. وإلى عبد المطلب يعود الفضل في إنقاذ المدينة من غارة أبرهة سنة ٥٧٠ م.

الفصل الخامس

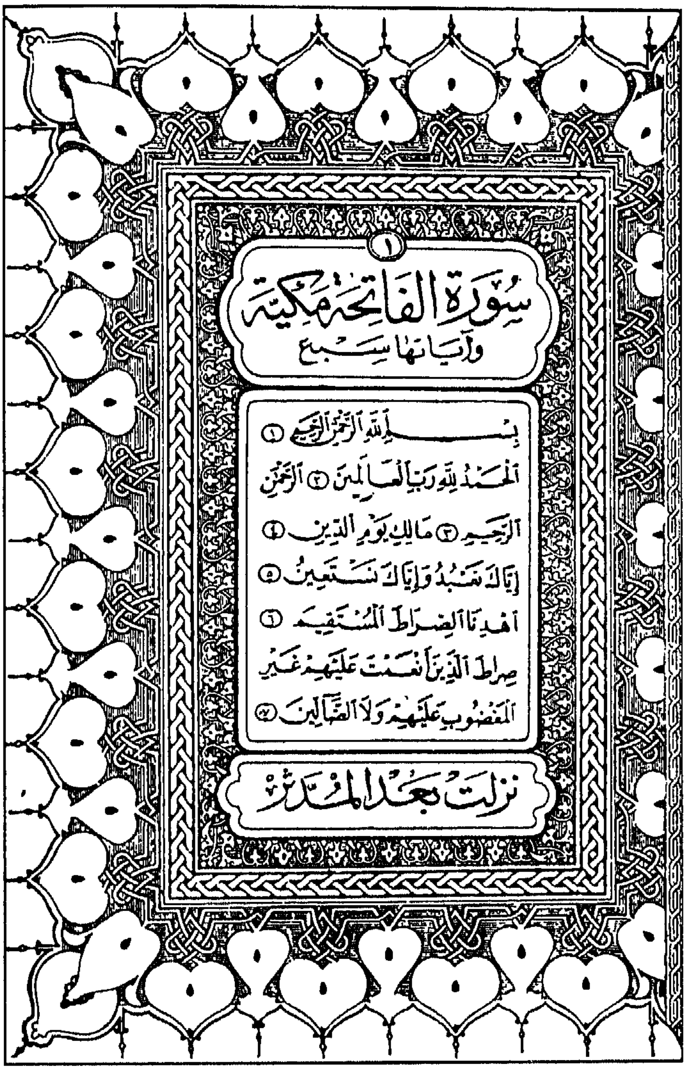
ظهور الإسلام

ولد النبي محمد ﷺ في ٢٠ نيسان (أبريل) ٥٧١ م. وتربى وترعرع في قبيلة قريش. كان والداه فقيرين، ومات والده قبل أن يولد. ثم ماتت أمه وهو بعد صبياً، فكفله جدّه عبد المطلب. ثم مات جده وهو بعد في التاسعة من عمره، فكفله عمّه أبو طالب ورعاه ودرّبه على شؤون الحياة.

عاش حياة الرعاة يربي الأغنام، ثم عمل في التجارة وسافر إلى بلاد الشام مع القوافل. وامتاز بين أقرانه بالذكاء والأمانة والإخلاص والنشاط، فأعجبت به خديجة بنت خويلد، وهي كانت ذي مكانة مرموقة بين أشراف قريش وفي التجارة الواسعة مع بلاد الشام، وانتهى هذا الإعجاب بالزواج على الرغم من أن محمداً كان يصغرها بخمس عشرة سنة.

لمّا صار الرسول ﷺ في سن الأربعين، نزل عليه الوحي بعدما عاش عيشة النساك والمتعبّدين. ومن بعد الوحي، صارت تنزل عليه الآيات، وراح ينشر دعوته سراً في أقرب الناس إليه، فكانت زوجته أول من آمن به من النساء. وأمّا المؤمنون الأوائل من الرجال فكانوا: علي بن ابي طالب، زيد بن حارثة، أبو بكر الصديق، عثمان بن عفان، الزُبير بن العوّام. وبعد ثلاث سنوات جهر بالدعوة للإسلام. وكان عليه أن يرشد الناس إلى عبادة إله واحد لا شريك له، ويحملهم على الإعتقاد بأنه رسول الله، وبأنّ هناك بعثاً وثواباً وعقاباً. كما رأى أنه عليه أن يصلح من مجتمعه العربي.

حرص النبي ﷺ على نبذ عبادة الأوثان التي كانت مصدر ثروة قريش وزعامتها. فوجد القريشيون في ذلك خطراً يهدد مصالحهم، ولذلك قرّروا القضاء على دعوته، عن طريق الاستخفاف به وبأصحابه في بادىء الأمر، ثم بواسطة التنكيل والتعذيب. وعندما اشتدت الوطأة على المسلمين، أمرهم



القرآن الكريم،
سورة الفاتحة

الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة وقد أحسن النجاشي وفادتهم، وكان ذلك في السنة الخامسة للدعوة، فيما بقي الرسول ﷺ في مكة يقاوم. ولما اشتد الاضطهاد عليه وعلى اتباعه أمرهم بالهجرة إلى يثرب، ثم هاجر إليها شخصياً بعدما تآمر القريشيون على قتله، فوصلها في سنة ٦٢٢ م.وتحوّلت يثرت إلى مدينة الرسول.

ومذ ذاك اعتبرت الهجرة أول حدث تاريخي عظيم في الاسلام، ولذلك جعلت هذه الحادثة في عهد عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الهجري الذي يؤرخ به المسلمون.

هكذا، أصبحت مدينة يثرب ملجأ لجميع المسلمين، فعمد الرسول ﷺ إلى إرساء قواعد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإحلال الوحدة الدينية محل الشعور القبلي، ثم عقد مع اليهود باسم المسلمين، حلفاً ليأمن شرهم، ومنح كل فرد حرية اختيار الدين وحرية الرأي. ووضع الرسول لهذه الدولة الاسلامية الجديد الأسس العامة لسياستها، وشرّع لها القوانين، جاعلاً من القرآن دستوراً لها، واحتفظ إلى جانب سلطته الدينية بكل مظاهر الحكومة السياسية. فكان يقود الجيوش، ويفصل في الخصومات، ويجبي الأموال. ولكنه في الأمور التي يتعرض لها الوحي يستشير كبار المهاجرين (الذين هاجروا معه إلى يثرب) والأنصار (الذين ناصروه في مكّة)... ونظّم شؤون المسلمين في المدينة وانصرف إلى نشر الدين الاسلامي.

نشوء الامبراطورية العربية

في السنة العاشرة للهجرة (٦٣٢ م)، خرج النبي محمد ﷺ في حوالي مائتي ألف من المسلمين إلى المسجد الحرام، وعند جبل عرفات ألقى على الجموع خطبته الشهيرة التي تعتبر دستور الاسلام. فقد أوضح فيها رسول الله ﷺ أصول الدين الاسلامي وشرعه. ونادى بالمساواة التامة بين الناس بقطع النظر عن اللون والجنس والعنصر. ودعا المسلمين إلى نشر تعاليمه وحمل لواء دعوته، والجهاد في سبيلها. وفي ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هجرية [٨ حزيران (يونيو) ٦٣٢ م]، توفي الرسول ﷺ بعدما أرسى قواعد دولة عربية اسلامية موحدة.

وأدرك خلفاء الرسول أنّ عليهم نقل تعاليم الاسلام إلى جهات العالم الأربع، وانطلقت بناء على توجيهاتهم جيوش العرب إلى الفتح ونشر التعاليم تحدوها حماسة الإيمان الشديد، واستطاعت هذه الجيوش أن تقيم للعرب دولة من أوسع الدول في التاريخ. وقد تمّ ذلك على مراحل وفي عهود ثلاثة

هي: عهد الخلفاء الراشدين، عهد الخلفاء الأمويين، عهد الخلفاء العباسيين.

- عهد الراشدين دام من سنة ٦٣٢ م. إلى ٦٦١ م.
- عهد الأمويين دام من سنة ٦٦١ م. إلى ٧٥٠ م.
- عهد العباسيين دام من سنة ٧٥٠ م. إلى ١٢٥٨ م.

إلى هذا، وبعد وفاة الرسول ﷺ، كان لا بد من خليفة له، والخلافة تعني رئاسة عامة في الدين والدنيا، نيابة عن النبي العربي...

الفصل السادس

عهد الخلفاء الراشدين

كان عددهم أربعة: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب.

وفي عهد الخلفاء الراشدين استطاعت جيوش العرب أن تقهر الروم في موقعة اليرموك (سنة ٦٣٦ م)، وتهزم الفرس في معركة القادسية (سنة ٦٣٨ م). وقد هبّت لنجدتها العناصر العربية في بلاد الشام والعراق. وبذلك تم توسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية فشملت، إلى جانب الجزيرة العربية بلاد فارس والعراق، وبلاد الشام ومصر، وأفريقيا حتى طرابلس الغرب، وكذلك أرمينيا وأواسط آسيا حتى نهر جيجون (أموداريا).

كيف كان يتم اختيار الخليفة في عهد الخلفاء الراشدين؟

كان الاختيار يتم عن طريق الانتخاب أو المبايعة بعد تبادل الرأي. وهذا ما يعطي الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين الصفة الشورية الانتخابية. أما سلطة هؤلاء الخلفاء فمطلقة، لا يحددها سوى منطق الشرع، ورضى الامة. ولذلك عندما خرج عثمان على منطوق الشرع ثارت عليه الامة وقتلته. وقد جرت العادة أن يعمد الخليفة المنتخب إلى الخطابة في الناس مبيّناً لهم منهجه في الحكم، وسياسته في إدارة شؤون الدولة، مطالباً إياهم بمحاسبته إذا أساء الأمانة.

النظام الإداري في عهد الراشدين

تشابكت مصالح الدولة، وكان اتساعها يزداد، ومهامها تتنوّع. والجدير ذكره أنّ الخلفاء الراشدين حرصوا على ضبط شؤون الدولة، فوضعوا لذلك تنظيمات شملت الأمصار والعاصمة.

أ ـ في العاصمة والمدينة

مع تولي عمر بن الخطاب الولاية كانت الدولة العربية قد اتسعت حدودها وتنوّعت مواردها، فأنشأ لضبط أمورها عدداً من الدواوين هي:

ـ ديوان الجند لكتابة أسماء الجنود، وما يعود إلى كلّ منهم من العطاء.

ـ ديوان الخراج والجباية لتدوين كلّ ما يرد إلى بيت المال.

ـ ديوان الرسائل وكان لصاحبه حق الإشراف على الرسائل التي ترد من الولاة.

واستعان الخلفاء الراشدون في تنفيذ مهامهم الواسعة بالكاتب الذي كان بمثابة وزير أو مستشار أول للخليفة. وكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط، على قلتهم في صدر الاسلام.

ب ـ في الأمصار

قسّم الخلفاء الراشدون البلدان التي فتحوها إلى أجناد، على الطريقة البيزنطية، وجعلوا على رأس كلّ منها قائداً عسكرياً له صلاحيات واسعة في إدارة شؤون جنده، ويرتبط بالخليفة مباشرة. وقائد الجند يجمع في شخصه جميع السلطات التنفيذية والقضائية والعسكرية.

النظام المالي في عهد الراشدين

أنشأ الراشدون بيت المال، وهو بمثابة وزارة المال اليوم، فيه تقرير شامل عن إيرادات الدولة، وفي المقابل بيان نفقاتها المتنوّعة.

أ ـ مورد بيت المال

في ذلك العصر، كانت أهم موارد بيت المال هي: الخراج، وهو الضريبة على الأرض يدفعها الشخص الذي يعمل في الأرض ويستفيد من خيراتها، وهذه الضريبة واجبة على الجميع، ولا تسقط بالإسلام.

ـ الجزية، وهي مبلغ معيّن من المال، يوضع على الأشخاص ويسقط بالإسلام. وكان الخلفاء الراشدون يعفون من هذه الضريبة الفقراء والعجز،

وذوي العاهات والرهبان، والنساء والأولاد والشيوخ. وقد فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل فرض الزكاة على المسلمين.

ـ العشور، وهي كناية عن ضريبة وضعها عمرو بن الخطاب على السفن التي تمرّ بالموانىء العربية، وعلى التجارة التي تمرّ عبر البلاد العربية، وقيمتها عشر (١/١٠) حمولة السفن أو عشر ثمن البضائع والسلع.

ـ الزكاة، وهي المال المفروض بموجب الشريعة على أغنياء المسلمين ليوزع على فقرائهم.

ـ الغنائم، وهي ما يكسبه المسلمون من أعدائهم في الحروب.

ب ـ نفقات بيت المال

والمال المتجمّع من هذه الضرائب يُصرف على الشكل الآتي:

ـ دفع مرتبات القضاة والولاة وسائر الموظفين.

ـ دفع مرتبات الجنود (منذ عهد عمر بن الخطاب).

ـ حفر الترع وإصلاح مجاري الأنهر، والإنفاق على المعدات الحربية والأسرى، والعطايا والمنح للأدباء والعلماء.

النظام القضائي في عهد الراشدين

ترسّم الخليفة الأول ابو بكر خطوات الرسول، ولكنه أسند مهام القضاء إلى عمر بن الخطاب، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان، لما عُرف عنه من الشدّة والحزم. وعندما تسلّم عمر الخلافة، واتسع نطاق الدولة، أوكل شؤون القضاء إلى أشخاص سمّوا «قضاة» وزعهم على المدن والأمصار لفضّ الخلافات بين الناس، وجعل لكلّ منهم مرتباً شهرياً محدداً. وسنّ عمر لهؤلاء القضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام. وقد لبث هذا الدستور، مرجعاً للقضاء، والخليفة هو الذي يعيّن القضاة ويختارهم ممن تتوفر فيهم الغزارة في العلم والتقوى والورع والعدل والذكاء. وكان القاضي يقاضي بداية الناس في منزله، ثم في المسجد، من غير أن يدوّن الأحكام، إنما كانت تنفذ فوراً. وفي عهد الخليفة علي بن ابي طالب، قضت الضرورة بأن ينشأ السجن لأول مرة في الإسلام لتقويم المنحرفين.

ولم تظهر ضرورة للجلوس والنظر في المظالم، على أيام الرسول أو في عهد الخلفاء الراشدين. والجدير ذكره أن من أوجد الشرطة هو الخليفة عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، إلا أن تنظيمها يعود إلى الخليفة علي بن ابي طالب، وهو آخرهم. وهو الذي اطلق على رئيسها لقب صاحب الشرطة. وكانت الشرطة في البدء من توابع القضاء، الغرض منها تنفيذ الأحكام القضائية أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ومساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه، ثم انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة.

ولا بد من التوقف عند النظام الحربي، فلقد حدّد القرآن للمسلمين الأسباب التي تصبح الحرب معها مشروعة بل واجبة. فقد جاء في سورة البقرة «وقاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدي». وعلى هذا تكون الحرب في الإسلام للدفاع عن النفس، أو الدفاع عن الدعوة عن طريق الجهاد المقدس، فما هو النظام الذي اعتمده المسلمون العرب في جيوشهم، ولا سيّما «الراشدين»؟

إنّ عمر بن الخطاب، بعد التقلبات في الجزيرة العربية واتساع الفتوح وتدفق الغنائم على المحاربين، واستقرار قسم منهم في المدن، خشي من تأثير هذه الظاهرة على مصير الإسلام، ومن ضمن نظام الجندية الذي نتحدث عنه، أنشأ هذا الخليفة الراشدي ديوان الجند وكفل للجنود معيشتهم ومعيشة عائلاتهم، مقابل انصرافهم إلى أعمال الجندية. وإلى عمر يعود الفضل كذلك في إنشاء الحصون والمعسكرات. وتكوّن الجيش في بادىء الأمر من العنصر العربي فقط.

إلاّ أنّ عرب الحجاز، لم يكونوا المسلمين الأوائل. ولما انتشر الاسلام، وخفقت أعلامه على سواحل مصر والشام، ورأى المسلمون سفن الروم تغير على ثغورهم وسواحلهم، تاقت نفوسهم إلى محاربة الروم في البحر. وعلى الرغم من أنهم يجهلون كلّ شيء عن البحر والسفن، فهم استطاعوا على عهد الخلفاء الراشدين أن يقهروا الروم في موقعة اليرموك (٦٣٦ م) والفرس في معركة القادسية (٦٣٨ م).

الفصل السابع

السعودية
في
مطلع القرن العشرين

حتى إعلان العربيّة السعوديّة باسمها، وتأسيسها عام ١٩٣٢ على يد أمير نجد عبد العزيز الثالث ابن سعود، تعرّضت البيئة الإجتماعيّة والإقتصاديّة فيها لتغيّرات كثيرة.

الحياة في الجزيرة العربيّة والمجتمع العشائري

كانت الحياة في الجزيرة العربيّة، ولا سيّما العربيّة السعوديّة، بدائية. ومنذ عهد النبي وحتى ظهور الوهابيّة ظلّت السعوديّة مثلها مثل الجزيرة العربيّة تفتقر إلى الوئام والإستقرار.

وكان جهاز العنف الطبقي عند البدو الرّحل في طور الظهور، ولم تكن مقوّماته الأساسيّة الجيش والشرطة والسجون والآلة والإدارة والمحاكم الطبقيّة، موجودة عمليّاً في القبيلة، والمفرزة الشخصيّة للشيخ والمكوّنة من العبيد يواجهها التنظيم العسكري الديموقراطي للقبيلة وهو تنظيم أقوى منها بكثير.

ويتجلّى الطابع العسكري الديموقراطي للتنظيم القبلي في تقسيم السلطة في الفخذ والقبيلة في حالات عدّة إلى سلطة مدنيّة (الشيخ) وعسكريّة (العقيد). لكلّ قبيلة عقيد وشيخ، ونادراً ما يتسلّم شخص واحد كلا المنصبين.

التنظيم القبلي العشائري

عائلات متوحّدة تشكّل نواة القبيلة، تتكتّل بسبب ما يجمع بينها من روابط قربى أو اعتبارات سياسيّة. وكثيراً ما كانت العلاقات تضبط حسب العرف.

أهم القبائل التي لمعت كما ورد في «لمع الشهاب»: قبيلة عنزة في نجد، وعاشت على الترحال إلى المناطق شبه الصحراويّة في الشام أثناء مواسم الجفاف؛ قبيلة شمر شمال نجد، قحطان وقبائل طي، قبيلة حرب الحجازيّة مسلّحة من البدو الحضر؛ قبيلة مطير النجديّة؛ قبيلة عتيبة من القحطانيِّين في نجد والحجاز؛ قبيلة البقوم؛ قبيلة سبيع المخلصة للسعوديِّين؛ قبيلة السهول؛ قبيلة الجبارة قحطان بن نجد؛ قبيلة العجمان من نجران إلى شمال الجزيرة، وقبيلة نجد من أسياد شرق الجزيرة في أواسط القرن الثامن عشر ومنافسي إمارة الدرعيّة في عزِّ نهوضها.

ولم تكن في الجزيرة العربيّة مدينة بالمعنى الكامل للكلمة، حيث لم تكن الزراعة لا تعتبر المصدر الرئيسي للعيش وللقوت. وكانت مكّة تمثِّل استثناءً واضحاً من القاعدة، والدرعيّة المكوّنة من قرى عدّة متقاربة.

حدود المملكة

إنَّ دراسة المملكة العربيّة السعوديّة، تفرض الاطلاع على أحوال المناطق الوسطى والشماليّة الشرقيّة من شبه جزيرة العرب وعلى نجد والإحساء والحجاز.

نجد مهد الوهابيّة ودولة السعوديِّين والمناطق المتاخمة لها من الشمال والشرق. وتنبسط نجد من الغرب إلى الشرق، من جبال الحجاز حتى الخط الساحلي على الخليج، ويمتدّ الإنحدار العام لأراضي البلاد من الغرب إلى الشرق. ونجد مقسّمة إلى مناطق ذات حدود مائعة، إلاّ أنّ تلك المناطق نشأت تاريخيّاً ويتميّز كلٌّ منها بوحدة جغرافيّة معيّنة وأهمّها منطقة العارض التي يقطعها وادي حنيفة والتي تقع فيها الرياض العاصمة، ومناطق المحمل وسدير الوشم، وأهم مناطق الجنوب الخرج المعروفة بآبارها العميقة وبأحواضها والأفلاج التي ظلّت باقية فيها قنوات الريّ الجوفيّة القديمة، ووادي الدواسر. وفي الشمال تقع منطقتان مهمتان هما القصيم وجبل شمر. في القصيم توجد المدينتان المتنافستان بريدة وعنيزة الواقعتان على الطريق من البصرة إلى المدينة المنوّرة، لذا كانتا على الدوام مركزين تجاريَّين مهمين.

وتقع منطقة جبل شمر جنوب صحراء النفوذ الكبرى، وهي أبعد قسم شمالي من أقسام نجد.

وكان الحجاز يستثير شهيّة جميع الإمبراطوريّات في الشرق الأوسط، بفضل الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنوّرة. وكان النظام الإجتماعي والسياسي والإقتصادي مشابهاً تقريباً للنظام في نجد التي لم تشهد في الواقع السيطرة الأجنبية. إلاّ أنّ مكانة الحجاز كولاية للخلافة الأمويّة أو العباسيّة، لمصر أو الإمبراطوريّة العثمانيّة، وكذلك الحج والتجارة والنشاطات الأُخرى المرتبطة به، قد جعلته يختلف عن جيرانه.

أهم الوديان

وفي العربيّة السعوديّة، وعلى الرغم من الجفاف والحرّ والقيظ الساخن في الصيف والبرودة الشديدة في الشتاء أحياناً، فإنّه ما إن تهطل الأمطار حتى تجتاح الوديان سيول عارمة، وأشهرها وادي الترمة الذي يبدأ في الحجاز شمال شرق خيبر ويتّجه إلى الشرق على مسافة ٣٦٠ كلم تقريباً، ثم يلتفّ نحو الشمال الشرقي ويضيع بين الرّمال ثم يظهر باسم آخر هو الباطن وينتهي قرب البصرة في العراق على مسافة ألف كلم تقريباً من منبعه. ومن الوديان الشهيرة أيضاً وادي حنيفة ووادي الدواسر ووادي نجران. والمياه الجوفيّة في الوديان أقرب إلى سطح الأرض ممّا يوفّر أسباب الحياة هناك. وفي وادي حنيفة ظهرت واحات عدّة كبيرة صارت مهداً للوهابيّة وآل سعود.

وتقع في وادي الرمّة المدينتان الرئيسيّتان في القصيم: بريدة وعنيزة.

مشاهد من الحياة اليوميّة

كانت حياة السواد الأعظم من سكّان نجد والأحساء والحجاز تعتمد على الزراعة والرعي البدوي.

في ظل طقس جاف شبه استوائي في القسم الأكبر من الجزيرة كان لا بُدَّ من استخدام أساليب الريّ الإصطناعيّة للمزروعات والأراضي، بالاعتماد على مياه جوفيّة وفيرة في المناطق الشرقيّة في الجزيرة. وما كان يتطلّب

أموالاً طائلة هو إنشاء الآبار الإرتوازيّة، فإنّه نادراً ما كان السكان يعتمدون على مياه الأمطار والسيول.

وتبعد منابع المياه عشرات ومئات الكيلومترات عن بعضها البعض. وقد نصادف عدداً لا يستهان به من الواحات في نجد والإحساء حيث الطبقات المختزنة للمياه على مقربة من سطح الأرض. وفي الماضي كانت، وكما هو شائع ومعروف، تستخدم الوسائل البدائيّة لرفع المياه، ولا سيّما من الآبار، تديرها الجمال والبغال والحمير. وكانت أشجار النخيل هي المزروعات الرئيسيّة في المناطق الشماليّة والوسطى من الجزيرة، ويستخدم التمر طعاماً بمختلف الأشكال، وكان يمثل المحصول الزراعي المهم والوحيد الذي يسد حاجات الحضر والبدو على نحو ما في سنوات «الرخاء». ثم تأتي الحبوب، الشعير والدخان والقمح والهرطمان، وكانت تنقل من نجد إلى الحجاز كميّة معيّنة من الحبوب. لكن الأوبئة المتفشّية كالكوليرا والطاعون كانت تجهز على قرى بكاملها.

وكان البدو الرحل يربّون الإبل ويعيشون على اللّبن ومشتقّاته، وفي حالات خاصة ينحرون الناقة ويأكلون لحمها وشحمها. وكان الجمل الصبور المشهور بتحمّله العطش ينقلهم على ظهره لاجتياز المسافات الطويلة والبوادي القاحلة. وفي الشتاء القارس تجوع الماشية ويهلك صغار الإبل وتجف ضروع النوق. وفي الصيف تنفذ الإحتياطات الشحيحة من التمر والحبوب بسبب الجفاف والصيف القائظ، ويجوع الكثيرون.

وكانت المقابر تقع عادة قرب مواقف البدو الصيفيّة. وكانت تستخدم الجياد أو الخيول العربيّة الشهيرة للأغراض الحربيّة والإستعراضات وفي رحلات القوافل الطويلة ويؤمن أصحابها لها احتياطيّاً من المياه ولبن الإبل.

كما أنّ رعاة الضأن كانوا يقطعون مسافات غير بعيدة بحثاً عن مصادر الماء في شهور الأعمال الزراعيّة، وللعناية بالنخيل أو بحقول بالحبوب. ولم تكن توجد بين رعاة الضأن شبه الرحل ورعاة الإبل الرحل والضأن حدود معيّنة لممارسة النشاط الزراعي. والتوازن بين البدو والحضر يبقى وقفاً على الظروف الطبيعيّة والتاريخيّة في الجزيرة العربيّة كلّها. وفائض السكّان الرحل

كان ينتقل إلى الشمال ليستقرّ وليقطع الصلة نهائيّاً بماضيه البدوي.

وفي شمال ووسط الجزيرة وخصوصاً في الحجاز كان الناس يستوردون الأرز المصري والهندي والقمح والشعير والسكّر من مصر واليمن والبن من اليمن والتوابل من الهند، والفواكه المجفّفة من سوريا. كما استوردوا الأسلحة والحديد والنحاس والرصاص لصنع الخراطيش والكبريت لصنع البارود. وكانوا يسدّون حاجاتهم اليوميّة من منتوج البدو الحرفي من الأنسجة الصوفيّة الخشنة والمصنوعات الجلديّة، فيما عند الفلاّحين الحضر كانت الأنسجة الصوفيّة والقطنيّة أنعم ملمساً وأكثر تطوّراً. كما أنّ الفلاّحين الحضر كانوا يعتمدون الحرف والصنائع المنزليّة، وكانوا يضفرون السلال والأكياس والحصر من سعف النخيل ويصدّرونها إلى الأسواق...

وكانت الواحات الكبيرة ملتقى الحدّادين والنحّاسين واللحّامين والصاغة والنجّارين وصنّاع السلاح والإسكافيّين، كما راجت من هناك في الزمان الماضي صناعة هواوين المرمر لدق القهوة وانتشر ضافرو الحصر. كما كان الصنّاع الذين يترحّلون مع قبائل البدو يمارسون أيضاً تربية الماشية.

وراجت الكفيّة (الكوفيّة) والعجال، والعباءات الحريريّة، وكانت ترتديها نساء الأغنياء وفي غالبيّتها من الحرير الهندي المتعدّد الألوان: أحمر أصفر أخضر وذي الثمن الباهظ، وتُستورد من ملك العراق. وأحياناً كثيرة تُصنع في الإحساء ونادراً في نجد. أمّا الكفيّة (الكوفيّة) فكانت تُصنع في العراق والإحساء والقطين وفي نجد نادراً. أمّا الحلي والصيغة فتباهى بها ولا يزال إلى يومنا هذا الأغنياء والفقراء...

واشتهرت تجارة الرقيق أو العبيد في السعوديّة وفي أنحاء الجزيرة العربيّة كلّها، وامتلكهم وجهاء البدو طوال قرون، ووصلوا إلى الجزيرة من وسط وشرق إفريقيا، وبعض الحجّاج كانوا يبيعون العبيد لقاء دخولهم إلى مكّة... وتركّزت تجارة العبيد في مكّة والحجاز، وكانت العائلات الغنيّة تمتلك عبيداً. وكتب بلغريف في هذا السياق: «صادفنا زنوجاً في الجوف وجبل شمر والقصيم وسدير... يؤدون أدوار العبيد في منازل أكثر الناس ثروة. وعدد الزنوج والمولودين في جنوب نجد في ازدياد...» والعبيد كانوا

للأدوار الصعبة وللأعمال القذرة وفي القبائل المترحّلة لرعاية الماشية ونقل الماء ونصب الخيم ورفعها وجمع الأحطاب والوقود. ومهما قيل ويُقال فقد اتفق المعلّقون على أن العبوديّة في السعوديّة تميّزت بالطابع العشائري، وهذا هو السبب في المعاملة الطيّبة نسبيّاً للعبيد، إذ يغدون أحياناً أفراداً غير كاملي الحقوق في عائلات أسيادهم وأحياناً ورثة لهم. . .

الفصل الثامن

ظهور الوهابية

ظهرت الوهابيّة، وظهرت دولة السعوديِّين في الجزيرة العربيّة على أساس حركة المصلحين الوهابيِّين.

والوهابيّة حركة دينيّة جبارة، أُسّست لدولة مركزيّة كبرى. والمذهب الوهابي ظهر في ظلٍّ انفصام نفساني خطير وفي حالة حياة روحيّة غير مرضية ولا سيّما في مجتمع نجد.

وقبيل ظهور الوهابيّة كانت هناك مذاهب إسلامية عديدة في الجزيرة العربيّة، إبتداءً من الحنبليِّين وسائر مذاهب السنّة، والزيديّة، والشيعة والأباضيّة.

وانتشرت عبادة الأولياء والصالحين واختلطت بالإسلام أو حلّت محلّه أحياناً المعتقدات والعبادات الجاهليّة كالسحرة والوثنيّين وعبادة الشمس والأرواح والجماد وعبادة الأجداد. لكنَّ محمد بن عبد الوهاب مؤسّس الوهابيّة أو صاحب مذهب الوهابيِّين درس الفقه الإسلامي منذ الطفولة، وهو ولد عام ١٧٠٣ في العينيّة. كان والده قاضياً شرعيّاً ويُدعى عبد الوهاب بن سليمان. وحفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، تزوّج وأدّى فريضة الحج وهو بعد لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره، بموافقة أبيه. وبعد ذلك قضى شهرين في المدينة المنوّرة، ثم عاد إلى أهله وطاف في الأقطار المجاورة وزار الحجاز والبصرة مراراً، ثم عاش في الإحساء. تتلمذ على عبدالله بن ابراهيم بن سيف، وهو من وجهاء المجمعة في سدير، وكان يعدّ سلاحاً فكريّاً لمحاربة المعتقدات السائدة في الواحة.

وكان بن عبد الوهاب يغيّر اسمه في أسفاره من مكان إلى آخر.. وقيل إنّه كان يبشّر دوماً بمذهبه، فضلاً عن أنّه كان يطلع على المذاهب

والمعتقدات الدينيّة في الجزيرة العربيّة والبلدان المجاورة. وظهر في ما ظهر أنّ الإسلام جسّد في تلك الحقبة التمايز الإجتماعي البدائي. كما أنّ وَضْع الأحاديث الدينيّة الشريفة انتهى في مطلع القرن العاشر الميلادي، أي بعد حوالي ثلاثمائة سنة من ظهور الإسلام. إلاّ أنّ مؤرّخي الوهابيّة يوضحون أنّ مصنفات الوهابيّة غدت معروفة لدى أغلبيّة المستشرقين الأوروبيّين على أثر صدور «دائرة المعارف الإسلاميّة». وأنّ الزعم بأنّ محمد بن عبد الوهاب صار حنبليّاً أثناء رحلاته ولا سيّما في قُم التي هي أحد أهم مراكز الشيعة، أمر غير واضح، وذلك لأنّ أغلب علماء واحات نجد مثل محمد بن عبد الوهاب كانوا حنبليّين.

بعثت الوهابيّة في الإسلام النهج المتشدّد الذي يرفض كل البدع ويدعو للعودة إلى الكتاب والسنّة غير المشوّهة. وأكّد الفقيه الجزائري الناصري أنّ معتقدات الوهابيّين صائبة تماماً. وأشار المؤرّخ البصري ابن سند إلى أنّ الوهابيّين هم حنبليّو الأزمان السالفة. ويعتقد د. كورانسيز أنّ الوهابيّة هي الإسلام في نقاوته الأولى. وفي العصر الحديث كتب طه حسين يقول إنّ هذا المذهب ليس إلاّ الدعوة القويّة إلى الإسلام الخالص المطهّر النقي من كل الشوائب.

المعتقدات والعبادات قبل الوهابيّة

انتشرت الحنبليّة في واحات نجد وبقيت فيها. وعندما نذكر المشهورين في عصر الوهابيّة لا ننسى العلماء الحنبليّين لأنّ الحنبلية وإن كانت تعترف من حيث المبدأ بالإسلام المبكر فقط، فإنّها تستجيب لحاجات مجتمع وسط الجزيرة في القرن الثامن عشر.

ولأنّ وسط وشرق الجزيرة كانا مهملين من الدول الإسلاميّة، كانت هناك ظروف ملائمة لمختلف تيّارات «الزندقة» مثل الخوارج والأباضيّة، كما ظلّت دولة القرامطة ذات التركيب الإجتماعي الفريد قائمة في الإحساء لفترة طويلة، وفي مختلف أنحاء الجزيرة تنتشر طوائف عديدة.

وما يهمّنا هو الحجاز حيث أغلبيّة مدنها وواحاتها تكوّنت من المسلمين

من مختلف المذاهب الأُصوليّة. وكانت المذاهب الإسلاميّة تتوق إلى عبادة الأولياء في الجزيرة العربيّة.

رحلات محمد بن عبد الوهاب

... في البصرة راح بن عبد الوهاب يدعو إلى أُصول التوحيد الحقيقي في الإسلام، وتأذّى منه الناس والرؤساء وأخرجوه منها.

وعاش بعض الوقت في الإحساء عند العالم الديني عبد الله بن عبد اللطيف، ثم في واحة حريملا في نجد. ولحق به أبوه بعد خلاف مع حاكم العينيّة الذي استولى على السلطة بعد وفاة الأمير السابق حامي العلماء. وهناك أمضى عدّة سنوات يبشّر بأفكاره وألّف «كتاب التوحيد». وبعد وفاة والده صار قاضياً بدلاً عنه، وكانت حريملا آنذاك منقسمة بين فخدين وكانا شبه مستقلين عن بعضهما البعض. وراحت دعوة محمد بن عبد الوهاب تثير تذمّر السكّان في الواحات.

وكانت الوهابيّة تدعو إلى التوحيد في الجزيرة وبالدرجة الأولى إلى توحيد نجد ودعم وجهائها ضد خصومهم التقليديِّين أشراف الحجاز. ومنعت الوهابيّة زيارة العتبات المقدّسة في مكّة والمدينة (ما عدا الكعبة) ومنها قبر الرسول، وبهذا حُرم الحجازيّون من عائداتهم عن طريق الحج التقليدي السابق. ولكن الحجازيِّين كانوا يتعاطفون مع الصيغة الرسميّة للإسلام في الإمبراطوريّة العثمانيّة، ورفض علماء الحرمين أن يقوم النجديّون بتعليمهم الإسلام.

وناهضت الوهابيّة التصوّف، وكان المذهب الصوفي قد انتشر في الإمبراطوريّة العثمانيّة في القرن الثامن عشر، وكانّ محمد بن عبد الوهاب تكتيكيّاً في نشر الوهابيّة، فيقول إنّه ليس ضد الصوفيّة ولكنّه في الوقت نفسه يعتمد على الفقهاء في القرون الثلاثة الأولى للإسلام وعلى الكتاب والسنّة. وهذه الأمور مجتمعة تعتبر الصوفيّة بدعة وتكبّراً، كما أنّ رفض السحر والشعوذة وشجب عبادة الأولياء موجّهة ضد الدراويش المتصوّفين. وهكذا عندما عارض الوهابيّون هذه البدع إنّما رفضوا في حقيقة الأمر المذهب السنّي الرسمي للامبراطوريّة العثمانيّة.

واستقرّ بن عبد الوهاب في العينيّة وجهد لكسب رضا الأمير عثمان بن حمد بن معمّر، وقال له حسبما روى المؤرّخون: «إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلاّ الله أن ينصرك الله تعإلى وتملك نجداً وإعرابها». وهذا الإقتراح وافق الأمير وسرعان ما ربطت أواصر القربى بين عائلتي محمد بن عبد الوهاب وحاكم العينيّة.

وانتقل بن عبد الوهاب إلى الدرعيّة عام ١٧٤٤. ومن أتباعه في هذه الواحة محمد بن سعود وزوجة الأمير. ونزل عند أحد تلاميذه وشرع في الاتصال بحاكم الدرعيّة وحثّ شقيقي الأمير وزوجته على التقارب بينهما، وكان محمد بن سعود يعدّ خططاً حربيّة وينشد الدعم الديني لتوحيد الجهود مع بن عبد الوهاب طالباً إليه أن لا يغادر الدرعيّة وأن يسمح له بجبي الضرائب من سكّان الواحة، فردّ بن عبد الوهاب بأنّ غنائمه من الغزوات والجهاد ستكون أكبر من الضريبة، وأفهمه أنّ هذا الأمر للحفاظ على نقاوة المذهب. وفعلاً تمّ التعويض عن الضرائب بالغنائم الحربيّة.

هذه هي حكاية المرحلة الأولى من تاريخ الوهابيّة، ليقترن من بعدها اسم محمد بن عبد الوهاب بالدرعيّة والدولة السعوديّة.

الفصل التاسع

إنتشار الوهابيّة

لحق بمحمد بن عبد الوهاب إلى الدرعيّة، عاصمة العربيّة السعوديّة آنذاك، أتباعه من العينيّة وسائر واحات نجد. وكانت الدرعيّة تعيش حياة البؤس، وابن سعود غير متمكّن من تأمين الغذاء والقوت لأعزّ أتباعه وتلاميذه. ولكن هذا الأمر لم يمنعهم من القيام بالجهاد ضد الكفرة، وكانوا يؤمّنون المال لمكافأة من يتمسّك بالوهابيّة.

واتخذت الأعمال الحربيّة الوهابيّة طابع النزاعات العاديّة بين الدويلات ـ الواحات. ومؤرّخو نجد لقّبوا أمير الدرعيّة آنذاك بالإمام.

فرض الزعامة الدرعيّة في وسط نجد

ناصر محاربو العينيّة بزعامة عثمان بن معمّر الدرعيّين دائماً، وتقرّب عثمان بن معمّر من السعوديّين وتزوّجت ابنته عبد العزيز بن محمد. وفي عام ١٧٤٨ ولد ابنهما سعود الذي بلغ الوهابيّون أوج قوّتهم في عهده، وناصب الأقارب العداء بعضهم بعضاً في السعوديّة. وفي حزيران ١٧٥٠ قتل الوهابيّون أمير العينيّة بعد أن لاصقته تهمة المراسلات السريّة مع حاكم الإحساء محمد بن عفالق، وحكم الواحة قريبه مشاري بن ابراهيم بن معمّر المعتمد على الدرعيّة. وبعد عشر سنوات، فقدت الدرعيّة استقلالها، فقد أبعد محمد بن عبد الوهاب مشاري إلى الدرعيّة مع عائلته وعُيّن شخص خاضع للسعوديّين، وما إن وصل محمد بن عبد الوهاب شخصيّاً إلى العينيّة حتى أمر بتدمير قصر آل معمّر.

وبين العامين ١٧٥٠ و١٧٥٣ تمرّدت إمارات منفوحة وحريملا وضرمى رافضة التبعيّة للدرعيّة، وقام سليمان شقيق محمد بن عبد الوهاب

بالتحريض على انتفاضة ضدّه. وراح يبعث الرسائل الشاجبة لتعاليم أخيه، لتبدأ القلاقل والفتن في العينيّة. لكن عبد العزيز استولى على حريملا مع ٨٠٠ من المشاة و٢٠ من الخيالة، ففرّ سليمان بن عبد الوهاب إلى سدير. وبقي دهام بن دواس امير الرياض المنافس الرئيسي للسعوديّين، وراحت الرياض والدرعيّة تشنّان الغزوات على بعضهما البعض، وساعد دهام في القتال سكّان واحات الوشم، سدير، ثادق وحريملا.

وفي الخمسينات من القرن الثامن عشر أطلّ الزعيم عريعر بن دجني يقود الإحسائيّين في حملات فاشلة على وسط الجزيرة. ثمّ انتقلت المبادرة من جديد إلى الدرعيّة. وفي آخر سنة ١٧٦٤، شن الحسن بن هبة الله زعيم القبائل البدوية في نجران حملة على الدرعيّة وهزم قوّات عبد العزيز فتكبّدت ٥٠٠ قتيل و٢٠٠ أسير. تدارك الأمر محمد بن عبد الوهاب وعقد الصلح على أساس دفع تعويضات الحرب وتبادل الأسرى، وانسحب النجرانيّون قبل أن يصل عريعر من الإحساء، إذ أنّ قوّات هذا الأخير وصلت بالمدافع إلى ضواحي الدرعيّة في بداية عام ١٧٦٥ وانضم إليهم كثير من النجديّين، بمن فيهم دهام امير الرياض وزيد بن زامل أمير الخرج. إلاّ أنّ حصار الدرعيّة فشل.

عبد العزيز إماماً للوهابيّين

في السنة نفسها مات محمد بن سعود وخلفه عبد العزيز الذي كان إماماً للوهابيّين. وقامت السعوديّة من النكسة، وراحت تتوسّع، فأخضع الوهابيّون الوشم وسدير وهاجموا واحة الزلفي شمالي شرقي مقاطعة القصيم النجدية الغنية، وشنوا حملات على البدو جنوبي وشرقي نجد. وتبعت الوهابيّين مفارز من قبائل سبيع والظفير. وفي سنة ١٧٧٠ أقسم القسم الكبير من القصيم يمين الولاء للوهابيّة والسعوديّين. وفي ظل هذه الاحوال طوّقت الرياض من جميع الجهّات بأتباع وحلفاء الوهابيّين وجرت مناوشات قتل فيها اثنان من آل دهام. وأحسّ أمير الرياض العجوز بالحزن والإخفاق، فخلت الرياض من سكّانها، ووصل الوهابيّون إليها سنة ١٧٧٣، وفرّ أميرها مع عائلته وكذلك معظم السكّان الذين كانوا يخشون من ثأر خصومهم القدامى.

وهلك الكثير من سكّان الرياض في الطريق بسبب العطش والحر وسقط الكثيرون بسيوف الوهابيّين. وانتهى الصراع للسيطرة على وسط نجد، الصراع الذي استغرق أكثر من خمس وعشرين سنة، وغلب عليه رغم كل شيء الطابع القبلي مع أنّ عدد القتلى بلغ ٤٠٥ آلاف شخص يشكّل أتباع دهام أكثر من نصفهم؛ وحتى ذلك الحين كان عبد العزيز يتربّع على عرش الدرعيّة، إلاّ أنّ الوهابيّين حصلوا على قاعدة متينة لمواصلة توسيع دولتهم.

وكانت سلطة السعوديّين ترتكز على عاملين اثنين: قوّة السلاح وعلماء وهابيّون يدعون إلى التوحيد الحقيقي. وتغيّرت نظرة قسم كبير من سكّان نجد بحكّام الدرعيّة الذين وجدوا فيهم مناضلين أقوياء في سبيل نقاوة الدين، وفي الدرعيّة مركزاً روحيّاً فضلاً عن أنّها عاصمة لإمارة قويّة. كما أنّ العلماء وأنصار الوهابيّين في الإمارات المعادية للدرعيّة كانوا يفتّتون المقاومة من الداخل.

ولقد قهر السعوديّون مقاومة الأمراء المستقلّين. وكان جليّاً تأثير قوى التجزئة واللامركزيّة والفوضى القبليّة. وبعد عشرة أو اثني عشر عاماً على سقوط الرياض وقعت نجد بكاملها تحت سيطرة الدرعيّة.

سلطة آل سعود تتعزّز

رغم المقاومات العنيفة ضد السعوديّين، وسّعت الدولة السعوديّة نفوذها، وتعزّزت سلطة آل سعود ونفوذهم وأقدم كل من عبد العزيز ومحمد بن عبد الوهاب على خطوة مهمّة، فقد أمّنا لسعود حق تولي العرش بالوراثة، والإمام عبد العزيز ما يزال على قيد الحياة. وأخذ محمد بن عبد الوهاب على عاتقه مهمّة جعل مدن ومناطق الدولة تقسم يمين الولاء، في حين كانت قد كبرت شعبيّة سعود بفضل بسالته وانتصاراته الحربيّة ومشاركته في تصريف شؤون الدولة. وكان الإعلان عن ولي العهد قد عزّز أُسرة آل سعود لأنّه سهّل وأمّن انتقال السلطة من الأمير إلى ابنه.

توسّع سلطة الوهابيّين

سادت نزاعات داخلية في الإحساء، وحملات سنويّة وهابيّة على قلب الإحساء حتى بلوغ سواحل الخليج، وبعض نواحي شمالي الإحساء، كما قمع الوهابيّون المقاومة بمنتهى القسوة، الخ. . .

وفي عام ١٧٩٢ اجتاح سعود بالحديد والنار واحات شرقي الجزيرة فاحتلّ العطيف، وأعربت واحات الإحساء عن خضوعها لسعود. وظلّ الوهابيّون شهراً في هذه المنطقة فدمّروا قباب الأضرحة وجميع العتبات المقدّسة للشيعة. وتوجّه العلماء الوهابيّون إلى المدن والواحات هناك.

وفي عام ١٧٩٢ أيضاً، توفّي مؤسّس الحركة الوهابيّة محمد بن عبد الوهاب، الذي كان له عشرون زوجة أنجب منهن ١٨ ولداً (قيل في ما بعد إنّ هذا العدد مبالغ فيه)، وخمسة من أبنائه وكثير من أحفاده غدوا في ما بعد فقهاء معروفين. وبعد وفاته صار ابنه حسين وهو شبه ضرير مفتيّاً للدرعيّة وبعده شغل أخوه هذا المنصب. ولكنّ أحداً من أحفاد محمد بن عبد الوهاب لم يرتفع إلى منزلة مؤسّس الوهابيّة في إمارة الدرعيّة.

وفي خريف ١٧٩٣، قامت حركة ضد سعود في الإحساء، فاستدرك الأمر، وإن وصل متأخّراً بعد أشهر، فإنّه استطاع على رأس جيش قوي قمع الحركة. وعندما قرّر الرحيل من الإحساء أمسك برجال من رؤساء أهلها، وظهر بهم إلى الدرعيّة وأسكنهم فيها. واستعمل في الإحساء أميراً ناجم المذكور، وهو رجل من عامتهم. وهكذا، أتبع سعود شرق الجزيرة العربيّة لسلطته.

بعد بدء الحركة الوهابيّة وتوسّع إمارة السعوديّين لم تنشب أي صدامات حربيّة بين حكّام الدرعيّة ووجهاء الحجاز، ولم تكن سلطة شريف مكّة مساعد الذي حكمها منذ ١٧٥٢ حتى ١٧٧٠ متينة، ففي نهاية حكمه خيّم على مكّة خطر فقدان الإستقلال الواسع الذي كانت تتمتّع به في عهد الإمبراطوريّة العثمانيّة.

وكما صوّرت لنا الأخبار، فإنّ حكّام مكّة والدرعيّة كانوا يقيمون

علاقات ودّية في ما بينهم، طالما أنّ مصالح النجديّين والحجازيّين لم تتصادم مباشرة، وطالما أنّ الحجازيّين يخشون تدخّل المصريّين والأتراك. . . أمّا تعاليم الوهابيّين فإنّ علماء الحجاز ووجهاءها، كانوا على الأرجح، قد استقبلوها بالعداء منذ البداية.

وشنّ شريف مكّة حملة جديدة على نجد لكنّه أخفق، فتخلّى عنه حلفاؤه من البدو، وعاد أدراجه إلى مكّة مع النواة الأساسيّة من قوّاته. وراح سعود يشن الغزوات على جبل شمّر ومطي وعلى المناطق الواقعة بين نجد والحجاز ليحاصر في شهر أيار (مايو) من سنة ١٧٩٥ تربة المركز الإستراتيجي المهم على مشارف الحجاز. وفي صيف ١٧٩٥ شنّ الحجازيّون غزوة على نجد، وتشجّع غالب بنجاح هذه الغزوة فجهّز في شتاء ١٧٩٥ - ١٧٩٦ قوّات ومدافع لحملة إلى أعماق الجزيرة العربيّة. وقد أُبيدت هذه الحملة على يد القوّات الموحّدة التابعة للدرعيّة وأرغمت الهزيمة غالب على توقيع الصلح. وواصل النجديّون تقدّمهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نجران والحدود الشماليّة لليمن، وبدأوا اتصالاتهم مع سكّان عسير. وفي عام ١٧٩٨ سمح شريف مكّة للوهابيّين بالحج فأدّى سعود وعائلته وبعض قوّاته فريضة الحج لأوّل مرّة. وبعدها كان الوهابيّون يخضعون الحجاز بالكامل.

معركة كربلاء

في عام ١٨٠٢، وما بين شهري آذار ونيسان (مارس وأبريل) استولى الوهابيّون على كربلاء حيث العتبات المقدّسة الشيعيّة وضريح الإمام الحسين حفيد النبي محمد(ص). وهكذا صار هذا التاريخ لدى المستشرقين الأوروبيّين والسوفييات تاريخاً لتدمير كربلاء.

وقد كتب المستشرق الفرنسي أ. دريو عن المعركة، فقال: «رأينا مؤخّراً في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الإمام الحسين مثالاً مرعباً على قساوة الوهابيّين. . . وأخيراً ها قد حلّ هذا اليوم في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٨٠٢، فقد هجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الإمام الحسين، وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة. . . تركوا كل ما تبقّى للنار والسيف. . .

وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعاً. . . ودمّروا ضريح الإمام. . . وحطّموا المنائر والقباب خصوصاً لأنّهم يعتقدون بأنّ الطابوق مصبوب من ذهب». وبهذه الصبغة نفسها يصف منجين تدمير كربلاء ويقول «إنّ الوهابيّين أقدموا على مجزرة في المدينة إلاّ أنّهم رأفوا بالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة، ودمّروا قبّة ضريح الحسين. وحصل الوهابيّون على أغنى الغنائم ومنها سيوف مرصّعة بالأحجار الكريمة، ولؤلؤة هائلة بحجم بيضة الحمام. . .».

الوهابيّون في مكة

كان تدمير كربلاء ما يزال عالقاً بالذاكرة في الآستانة، والمسؤولون يخشون كثيراً على مصير مكّة فحاولوا اتخاذ بعض الإجراءات لمقاومة الوهابيّين، إلاّ أنّ هذه الإجراءات والمحاولات للحيلولة دون سقوط مكّة قد أخفقت، ففي نيسان (أبريل) ١٨٠٣، دخل الوهابيّون بانتظام إلى مكّة، وبعد أداء مراسم الحج أخذوا يدمّرون كلّ الأضرحة والمزارات ذات القباب والتي أُنشئت تكريماً لأبطال فجر الإسلام، ومسحوا عن وجه الأرض كل المباني التي لا تناسب معتقداتهم، وأجبروا أهالي مكّة على أداء الصلاة من دون ألبسة حريريّة، كما منعوهم من التدخين في حضور الآخرين، وأحرقت أكوام الغلايين في الساحات وحُرّم بيع التبغ، وأُلغيت الصلوات في المساجد إكراماً للسلطان العثماني، وعيّن الوهابيّون حاكماً لمكّة وفقهيّاً من الدرعيّة قاضياً لمدينة. وهذا ما سدّد أقسى ضربة إلى سمعة الخليفة العثماني ومكانته بوصفه حامي الحرمين والمدن المقدّسة. وقُتل أمير الدرعيّة، وهو والد سعود، عام ١٨٠٣ في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يُدعى عثمان. وأفادت المعلومات في ما بعد أنّ قاتل الأمير عبد العزيز رجل شيعي كان قد هلك كل أفراد عائلته أثناء غزو كربلاء، فأسرع سعود إلى الدرعيّة بعد مقتل أبيه، فبايعه سكّانها في الحال، واعترفت كل المناطق بالأمير الجديد، وكتب سعود رسائل إلى حكّام المناطق يعاهدهم فيها على أنّه سيلتزم بالعدل. . .

السيطرة على الحجاز

في العام ١٨٠٤، أخذ الوهابيّون يضيقون من جديد على خصومهم في الحجاز وجرت معارك استمرّت طوال العام، شارك فيها الأتراك إلى جانب قوّات الشريف. وفي عام ١٨٠٥ هاجمت قوّات غالب اتحاد القبائل الموالية للوهابيّين... ومني الشريف غالب بهزيمة فقد فيها مئات من القتلى معظمهم من الأتراك، وعلى اثر طوّق الوهابيّون مكّة وأعاقوا الحج. وفي شتاء ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ وبدعم من سعود حاصر مكّة بدو بزعامة عبد الوهاب.

ومرّت العربيّة السعوديّة ما بين أعوام ١٨٠٤ و١٨٠٩ بقحط شديد، لكن قوافل الأغذية كانت تصل إلى نجد بانتظام فيما عانت مكّة المحاصرة، وصار أهلها يأكلون الكلاب والجلود إلى أن دخل الوهابيّون مكّة وخضع لهم غالب في عام ١٨٠٦.

وفي عام ١٨٠٥، استسلمت المدينة المنوّرة. وفي الوقت عينه احتلّ الوهابيّون ينبع الواقعة تحت سيطرة شريف مكّة؛ وجرى ضمّ الحجاز إلى دولة السعوديّين. وبقيت بيد شريف مكّة غالب سلطة كبيرة، وكذلك بقيت جدّة تحت سيطرة غالب... وراح سعود يجلي القضاة والموظّفين العثمانيّين عن الحجاز ومكّة والمدينة، وكان يعزّز دوماً التحصينات ويحتفظ بحامية قويّة فيها يستبدلها كل عام. وبدأ الوهابيّون من أوائل عام ١٨٠٣ يعيقون بمختلف الوسائل قوافل الحجّاج من أرجاء الامبراطوريّة العثمانيّة. فزادوا ضريبة الحج ومنعوا قوافل الحجّاج من إدخال محمل وآلات موسيقيّة والخ... حتى توقّف توارد وجبات كبيرة من الخارج.

الفصل العاشر

المصريون
في
الحجاز ونجد

في سنة ١٨٠٥، صار محمد علي والياً على القاهرة، ومن حينها ترسّخت أقدامه فيها. عزّز سلطته في الداخل، حارب المماليك، والتفت إلى الحرمين الشريفين في محاولة لتقوية سمعته في الامبراطوريّة العثمانيّة كلّها. أراد السيطرة على تجارة السلع الهنديّة والبن اليمني التي تمرّ عبر جدّة، وأراد أيضاً إخراج الوهابيّين من مكّة والمدينة المنوّرة وهم الذين نصبوه دست الحكم في مصر، ولكنّهم قيّدوا أعماله فأنزعج كثيراً. كما أنّ الباب العالي وعده بتسليم ولاية دمشق إلى أحد أبنائه إذا استطاع تحرير مكّة والمدينة.

واستعداداً للحملة على الجزيرة العربيّة، خطّط المصريّون لحملات تكتيكيّة، فحوّلوا أحد مرافىء البحر الأحمر إلى قاعدة رسميّة لتموين الحملة، وعزّزوا القلاع في القسم الشمالي عن طريق قوافل الحجّاج من مصر إلى الحجاز، حيث أرسلوا إليها حاميات من الجنود المغاربة المرتزقة ووزّعوا الهدايا على القبائل البدويّة.

وعيّن لقيادة الحملة طوسون بن محمد علي، وهو فتى شجاع كان ما يزال آنذاك في الثامنة عشرة من العمر.

وبدأت المراسلات السرّية بين محمد علي وشريف مكّة غالب الذي وعده بالتأييد والدعم، فيما كان سكّان الحجاز ينتظرون الأتراك ليخلّصوهم من الوهابيّين.

هزيمة المصريِّين في وادي الصفراء

بعد تدمير كربلاء والإستيلاء على الحجاز، وفي أواخر العقد الأوّل من القرن التاسع عشر ضعفت العمليّات الهجوميّة لإمارة الدرعيّة... ناهيك عن

الجفاف والقحط اللذين أصابا الجزيرة العربيّة ما بين العامين ١٨٠٤ و١٨٠٩.

كما تفشّى وباء الكوليرا حيث كان يموت في الدرعيّة يوميّاً عشرات الأشخاص. والوهابيّون الذين اشتهروا بتعصّبهم في القتال ضد العدوّ الخارجي، عانوا من الخلافات في الأسرة الحاكمة ممّا فتّت سلطة السعوديّين من الداخل.

وبالعودة إلى الحملة المصريّة، فإنّه في آب (أغسطس) ١٨١١، أرسل محمد علي قسماً من القوّات المصريّة إلى الحجاز بحراً للإستيلاء على ينبع بواسطة الإنزال، بينما توجّهت الخيّالة بقيادة طوسون إلى هناك برّاً، ووصل معه واحد من أفضل القادة العسكريّين عند محمد علي ويُدعى أحمد الملقّب بـ«بونابرت»، وهو المستشار العسكري عنده لا بل كان القائد الفعلي. وفي تشرين الأوّل (اكتوبر) تمّ احتلال ينبع ولم تكن فيها قوّات وهابيّة. ونهب الجنود ما كان فيها من ودائع وأموال وأقمشة وبن، وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر وأخذوهن أسرى.

وفي تلك الأثناء، كان سعود قد اطلع على استعدادات محمد علي بواسطة مخبريه في القاهرة. وفيما احتلّ طوسون ينبع، عبأ سعود أفضل قوّاته وأرسلها إلى الحجاز بقيادة ابنه عبدالله وشغل ١٨ ألفاً من الوهابيّين، بمن فيهم ٦٠٠ من الخيّالة، مواقعهم عند وادي الصفراء على منتصف الطريق بين ينبع والمدينة.

ونشبت المعارك في كانون الأوّل (ديسمبر)، وكان جيش طوسون يلاحق قبيلة حرب التي لم يقم معها علاقات ودّية، فدخل في ممرّ جبلي ضيّق قرب وادي الصفراء وتعرّض لضربات قوّات الوهابيّين المختارة التي لم يكن طوسون على علم بوصولها؛ ففرّ الجيش المصري البالغ ٨ آلاف شخص، ودُمّرت قوّات طوسون التي فقدت نصف عديدها. وفضلاً عن الأسباب العسكريّة الصرف، كان لعنصر المباغتة عند الوهابيّين ولسوء الموقع عند القوّات المصريّة، دور في هزيمة قوّات طوسون الذي لم تكف بسالته الشخصيّة هنا.

احتلال الحجاز والمصريّون يحتلفون

كان محمد علي يحاول تصحيح الأوضاع بعد الهزيمة، واستمالة شيوخ البدو المحليّين، فراح يرسل إليهم الأموال من مصر، وهو كان يسدّ العجز في خزينته (بعد الهزيمة التي مُني بها) من تصدير الأطعمة من الإسكندريّة إلى مالطة وإسبانيا. كما لفت إلى هذا الأمر قنصل روسيا في مصر ش. روسيتي في تلك الأثناء. وهكذا راح محمد علي يستأنف تحصين مصر ويستعد رويداً رويداً للحملة على عبد الوهاب، الذي كان يتّخذ بدوره إجراءات لمواجهة هذه الحملة.

ووصلت إلى ينبع إمدادات جديدة ومعدّات حربيّة. وفي خريف ١٨١٢ توجّه طوسون على رأس قوّات كبيرة نحو المدينة المنوّرة، فاقترب منها في تشرين الأوّل (أكتوبر) دون أن يواجه مقاومة في الطريق. قصف طوسون المدينة بالمدفعيّة، ففتحت الإنفجارات ثغرات في أسوارها، واستسلمت، واختبأت حامية الوهابيّين في قلعة المدينة، لكن الجوع أرغمها على ترك القلعة بعد ثلاثة أسابيع.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨١٣، احتلّ فصيل مصري غير كبير مدينة جدّة بلا قتال، وانسحب عبدالله بجيشه من مكّة، وسقطت مكّة والطائف بعد بضعة أيّام بيد طوسون، وانتزع المصريّون الحجاز من الوهابيّين من دون معارك حربيّة تُذكر، وأُقيمت في المناسبة احتفالات صاخبة في القاهرة.

ولكنّ الأشهر التالية عكّرت جوّ الفرح عند المصريّين؛ ففي ربيع وصيف ١٨١٣، قام الوهابيّون بغزوتين موفقتين على الحجاز، وظهر سعود بنفسه قرب المدينة المنوّرة مع أنّه لم يتمكّن من احتلالها. وهجم أهالي عسير الموالون للوهابيّين على الفصائل المصريّة قرب أسوار مكّة وجدّة. وفقد الجيش المصري، خلال هذه الحملة، ٨ آلاف شخص و٢٥ ألف جمل.

سياسة محمد علي في الحجاز

كان حاكم مصر محمد علي يدرك أنّ الوهابيّين لم ينتهوا رغم احتلال

الحجاز. . . وعندما ذهب على رأس بضعة آلاف من الجنود إلى جدّة استقبله غالب، وأقسم الإثنان على الصداقة في الكعبة.

وكان مركز شريف مكّة قويّاً ولا يسمح بالتطاول على سلطته، إلاّ أنّ محمد علي اعتقله غدراً في أواخر عام ١٨١٣، وطلب إليه تحت تهديد الموت أن يصدر أوامره إلى أبنائه ليكفّوا عن المقاومة. وهكذا كان، وعيّن محمد علي مكانه صنيعته يحيى بن سرور وهو من أقرباء الشريف وصادر أموال الشريف. . .

إلى هذا، كان محمد علي يعرف تماماً أنه لم يحقّق نصراً حاسماً في الجزيرة العربيّة، فقرّر مواصلة الحملة كي لا تتزعزع مكانته؛ ففرض الضرائب، وصارت جدّة مستودعاً رئيسياً للذخيرة والعتاد والأغذية. وزاد وسائل النقل بآلاف الجمال ووزّع النقود على المحتاجين في جدّة والخ. . .

وتوفّي سعود عام ١٨١٤، فيما كان الوهابيّون قد فقدوا الحجاز كلّه وعمان والبحرين وقسماً من تهمة وتسلّم ابن سعود عبدالله دولة انتابها الخراب.

معركة بسل

أخذت سياسة محمد علي في الحجاز تؤتي بعض الثمار. فقد تمكّن من تحسين العلاقات مع البدو. . . وفي أواخر ١٨١٤ وبداية ١٨١٥، حشد الوهابيّون في بسل على مقربة من تربة، جيشاً بلغ ٣٠ ألفاً، كما يقول ابن بشر، و٢٠ ألفاً، كما يقول بوركهاردت. ثم احتلّت قوّات محمد علي تربة ورنية وبيشة، وسُلّم زعيم عسير طامي بن شعيب إلى محمد علي حيث أُعدم في الآستانة. وراح ينصّب على القبائل البدويّة في كل مكان أُناساً طائعين له؛ وهكذا شنّ عمليّات حازمة ودحر الوهابيّين في عسير وفي المناطق المهمة من الناحية الاستراتيجية بين الحجاز وعسير.

دخول القصيم

محاولة طوسون الأولى لدخول القصيم لم تنجح، فترك جيشه القصيم،

وكفّ المصريّون عن التدخّل في شؤون نجد، وتأكّد ضمان حريّة التجارة والحج للجميع بموجب اتفاقية بين مبعوثي عبدالله وبين طوسون في خريف ١٨١٥ في القاهرة.

انسحب طوسون وبدأ عبدالله بتنحية أمراء القصيم الذين لا يثق بتأييدهم له... فتذمّر أهالي القصيم والبدو، وبدأوا بإرسال الشكاوى إلى محمد علي... فارتفعت منزلة محمد علي في الامبراطوريّة العثمانيّة وراح يطالب الباب العالي بتسليمه الشام على سبيل المكافأة عن الانتصارات في الحجاز. ولذا، أصبحت أكثر إلحاحاً بالنسبة إليه مهمّة تثبيت أقدامه في الحجاز وفي الجزيرة العربيّة عموماً، بتقويض الدولة السعوديّة الأولى نهائيّاً.

إبراهيم باشا يحتلّ نجد

عُيِّن ابراهيم، الإبن الأكبر لمحمد علي لقيادة الحملة هذه المرّة. وفي خريف ١٨١٦، وصل إبراهيم باشا إلى المدينة المنوّرة مع قوّات كبيرة؛ ووصلت إليه من مصر قوّات جديدة وأغذية ومعدّات، واجتذب إليه القبائل في ضواحي المدينة، وبدأ يزحف ببطء على نجد، فاّحتل الحناكيّة أوّلاً، وأنشأ فيها معسكراً محصّناً، فبدأت القبائل البدويّة تبتعد عن عبدالله الذي وصل إلى القصيم، وهاجم المصريِّين ومُني بهزيمة، كما قُتل كثيرون من الوهابيِّين واقتُطعت آذانهم وأُرسلت إلى القاهرة.

وفي صيف ١٨١٧، اقترب إبراهيم باشا من الرس، وحاصرها في أوج الصيف عدّة أشهر، ودافع المحاصرون عن أنفسهم بشراسة وبسالة، بفضل فهم عبدالله الأهميّة لاستراتيجيّة الرّس. وبلغت خسائر إبراهيم ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص، وأغلبهم بسبب الأمراض. وعلى الرغم من هذا كلّه، فإنّ جيش إبراهيم باشا كان يملك المدفعيّة ومختلف آلات الحصار والقيادة الماهرة، ناهيك عن أنّ إبراهيم وزّع الذهب المصري بسخاء على البدو، وأعفاهم من ضريبة الزكاة. فخضعت الرس في تشرين الأوّل (اكتوبر) بشروط مشرّفة.

واحتلّ جيش إبراهيم عنيزة بعد عدّة أيّام من حصارها واستسلمت

حاميتها بشروط مشرّفة أيضاً، ولم يحاول إمام الوهابيّين عبدالله مقاومة جيش إبراهيم باشا أكثر في ساحات مكشوفة. وبعد عنيزة استسلمت بريدة وانسحب عبدالله إلى شقراء ثم إلى الدرعيّة. وبقي إبراهيم في بريدة حوالي الشهرين لاستلام الإمدادات، ثم تحرّك نحو شقراء بقوّات قليلة لا تزيد عن ٤٠٠٠ جندي، وشارك بدو مطير وحرب وعتيبة وبنو خالد، وهم من البدو الذين كانوا آخر من خضع للوهابيّين وأوّل من أدار لهم ظهر المجن.

وفي كانون الثاني (يناير)، وصل إبراهيم إلى ضواحي شقراء بقصف مدفعي. ثم اقتحم المدينة، فسقطت بعد عدّة أيّام، واستولى على الوشم كلّها، ثمّ احتلّ سدير والمجمعة بلا قتال، وأعلنت حريملا والمحمل عن خضوعهما. ومن شقراء إلى ضرمى، التي لم تستسلم، فهجم جنود إبراهيم عليها ونكّلوا بأهلها ونهبوا المدينة، وكان ذلك في شباط (فبراير) وآذار (مارس) من عام ١٨١٨، وبذلك فتح الطريق نحو الدرعيّة.

سقوط الدرعيّة

في نيسان (ابريل) بدأت تسدل الستارة على المشهد الأخير من فاجعة سقوط الدولة السعوديّة الأولى. فقد بدأت معركة الدرعيّة، ومع أنّ واحات ومدن نجد سقطت تباعاً في يد الفاتح المصري، إلاّ أنّه كان في كلّ منها وهابيّون راسخو العقيدة رفضوا فكرة التعايش سلميّاً مع الغزاة وظلّوا مخلصين حتى النهاية لآل سعود. وتقاطروا على الدرعيّة للمشاركة في المعركة الأخيرة. وواجهت القوّات المصريّة فصائل من العاصمة والواحات الأُخرى في وسط الجزيرة، وقاد هذه الفصائل ثلاثة من أشقاء عبدالله، وهم فيصل وإبراهيم وفهد. وكانت في الدرعيّة قوّات من منفوحة بقيادة العقيد الشجاع عبدالله بن مزروع، وفصائل من حريق وسدير، وكان كهول من سكّان العاصمة، ومفارز تحت قيادة أبناء آل سعود وأفراد عائلة آل معمر وغيرهم من القادة البارزين.

وكان تحت إمرة ابراهيم باشا حوالي ٢٠٠٠ من الخيّالة، و٤٣٠٠ من الجند الألبان والأتراك، و١٣٠٠ من الخيّالة المغاربة، و١٥٠ المدفعيّين،

ومعهم خمسة عشر مدفعاً، وكذلك ٢٠ من المختصّين بالبنادق، و١١ بالقذائف.

ستّة أشهر من المعارك الطاحنة، وحالة الوهابيِّين ميؤوس منها... وقد سجلت حالات فرار. وفي مطلع أيلول (سبتمبر) ١٨١٨، بدأ الهجوم العام على المدينة، فاحتمى عبدالله وقسم من أقربائه في قلعة الطريف. وفي ٩ أيلول، أقدم عبدالله على المفاوضات بعدما أدرك أنّ كل شيء قد ضاع؛ وتوجّه إلى معسكر المصريِّين، وطالبهم إبراهيم باشا بالإستسلام. واتفق مبعوثو عبدالله معه على الاستسلام بشروط مشرفة لسكّان واحة الدرعيّة الذين كانوا ما يزالون يقاتلون. وقاوم وقاتل عبدالله ومحاربوه المرابطون في قلعة الطريف يومين آخرين بشراسة، وأوصل إبراهيم إلى منطقة القلعة كل مدفعيّته. وفي ١١ أيلول (سبتمبر) استسلم عبدالله. وفقد السعوديّون زهاء عشرين من أقارب الإمام، بمن فيهم ثلاثة من إخوانه. وهكذا تمّ احتلال الدرعيّة. وفي المناسبة، جرت في القاهرة في تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٨١٨ احتفالات بهيجة أُطلقت فيها نيران المدافع والألعاب الناريّة، وكان الناس يسرحون ويمرحون. وعلى أثر ذلك، أعرب السلطان عن ارتياحه العميق... ونقل عبدالله عن طريق القاهرة إلى الآستانة بصحبة اثنين من المقرّبين إليه في مطلع كانون الأوّل (ديسمبر). وأُحضر الثلاثة إلى القصر مقيّدين بسلاسل ثقيلة ومحاطين بجمهور من المتفرّجين؛ وبعد المراسم، أمر السلطان بإعدامهم، فقُطعت رقبة الزعيم أمام البوابة الرئيسيّة للقديسة صوفيا، وقُطعت رقبة الوزير أمام مدخل السراي، وقُطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسيّة في العاصمة.

الفصل الحادي عشر

المصريّون على طريق الجلاء

(١٨١٨-١٨٤٠)

بعد تدمير عاصمة الوهابيّة وإزالتها من الوجود وابتزاز أهلها. . . توالت الأحداث، فأرسل الإنكليز الرحّالة الأوروبي ج. سادلر لمقابلة إبراهيم باشا. . . وطلب منه القيام بعمليّات مشتركة ضد الوهابيّين، فرفض هذا الأخير وسافر إلى نجد في أواسط ١٨١٩ فالمدينة المنوّرة. . . وكان ابن الوالي المصري يعرف نوايا الإنكليز المناوئة لهم وتذمّرهم من قوّة المصريّين في الجزيرة. وفي خريف ١٨١٩، طرد إبراهيم سادلر من جدّة، ثم غادر على الفور فصيل الإحتلال البريطاني منطقة القطيف بعدما فقد الكثير من جنوده بسبب الأمراض.

في الوقت ذاته، تأكّد إبراهيم باشا أنّ عائدات البلد لا تسدّ نفقات احتلاله، فالقوّات المصريّة بعيدة عن القاهرة بآلاف الكيلومترات وبعيدة عن قاعدتها الرئيسيّة التعبوية في الحجاز. وأخذ السكّان البدو والحضر يضمرون للغزاة عداءً متزايداً. . . فقرّر إبراهيم أن يجلي قسماً كبيراً من قوّاته من نجد ومن شرق الجزيرة، فهو يعلم أنّ أباه يسعى بالدرجة الأولى إلى السيطرة على حوض البحر الأحمر. وليس على أواسط الجزيرة العربيّة. وحشد المصريّون قوّاتهم في منطقة الرس، وقبيل الإنسحاب دمّروا القلاع والتحصينات الدفاعيّة واقتادوا الماشية وقطعوا النخيل وخرّبوا الحقول. ولشدّة التعرّض للناس، نشأ انطباع وكأنّ سياسة المصريّين تتلخّص في إغراق وسط الجزيرة في الفوضى والركود والدمار وإلغاء احتمال انبعاثه. وصارت الدولة السعوديّة تحت الأنقاض وقد قهرت عساكرها ودمّرت إداراتها.

النزاعات القبليّة في ظل الإحتلال المصري

حلّ خليل باشا، ابن أخت محمد علي، محل إبراهيم باشا كحاكم

للجزيرة العربيّة. إلاّ أنّه سرعان ما توفّي وعُيّن بدلاً عنه أخوه أحمد شكري يكن بك الذي ظلّ في الجزيرة باسم احمد باشا حتى عام ١٨٢٩، حيث استدعاه محمد علي للقاهرة وعيّنه رئيساً لحربيّته.

وفي خريف ١٨١٩، عُيِّن محمد بن مشاري بن معمر حاكماً على نجد، وهو من العائلة التي حكمت العينيّة في فجر الحركة الوهابيّة. وحاول ترميم أنقاض الدرعيّة، واستحسن السكّان الأمر وراحوا يأتون إليه وفوداً للتأييد. وظهر منافسون له وحكم آل عريعر حتى عام ١٨٣٠ في شرقي الجزيرة وهم من شيوخ بني خالد. وظهر على مسرح الأحداث في نجد تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن عبد العزيز، ومشاري بن سعود بن عبد العزيز وهو إمام فرّ من الحرس المصري، وظهر في سدير حيث أعلن نفسه إماماً، وفي آذار (مارس) ١٨٢٠، استولى على الوشم... ووقعت اضطرابات في نجد، بلغت محمد علي فقرّر تعزيز الحاميات في أواسط الجزيرة. وفي خريف ١٨٢٠ وصل إلى القصيم حسين بك مع إمدادات وقرّر التخلّص من الأمير السعودي. وتحصّن أنصار تركي في قلعة الرياض، ولكنّهم بعد حصار قصير من المصريّين وافقوا على الإستسلام شرط الحفاظ على حياتهم؛ لكنهم قُتلوا جميعاً، وهرب تركي.

وفي آذار (مارس) ١٨٢١، أمر حسين بك جميع أهالي الدرعيّة العائدين بأن يجتمعوا، واعداً إيّاهم بتوزيع الأراضي عليهم. وقبيل العودة إلى مصر، جمع حسين بك رهائن من مدن عديدة وحبسهم في الحصن الذي أنشىء في ثرمداء. وظلّوا هناك حتى وصل إلى نجد في ربيع ١٨٢٢ قائد مصري جديد هو حسن بك الذي انشغل بجمع الأتاوات والنهب. وقامت مقاومة ضد المحتلّين، ولم تكن لدى المصريّين قوّات كافية، فاكتفوا بإبقاء حاميات في مدن الرس وشقراء وبريدة وعنيزة وثرمداء والرياض.

بعث سلطة السعوديّين في عهد تركي

بعد هروبه من المصريّين عام ١٨٢٠، تخفّى تركي لسنوات عديدة، في

المناطق الجنوبيّة كما يبدو، وظهر في نجد في أيار ـ حزيران (مايو ـ يونيو) من عام ١٨٢٣.

ووجد تركي حلفاء له وأنصاراً، فتشجّع وقام بغزوة على مدينتي منفوحة والرياض المتجاورتين وفيهما حاميات مصريّة من ٦٠٠ شخص.

وفي تلك الأثناء بدأت في القصيم انتفاضة شاملة ضد المصريِّين الذين اضطروا للجلاء إلى الرياض وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوحة فقط.

وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصريّة في نجد في عامي ١٨٢٣ ـ ١٨٢٤، فوسّع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوحة وعزل الحاميتين المصريّتين وأخضع سدير والمجمعة والوشم. وفي أواخر تموز (يوليو) شدّد تركي الضغط على الرياض وثرمداء والخرج، وأجليت الحامية المصريّة من منفوحة. وبعد عدّة أشهر من الحصار، سقطت الرياض على يد تركي، وتمّ جلاء المصريّين من الحجاز وتطهير أواسط نجد كلّها من المحتلّين.

استمرّ حكم تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود من عام ١٨١٣، عندما بدأ يحتلّ نجد، وحتى مقتله في عام ١٨٣٤. ويرى الكثيرون من المؤرّخين أنّ تركي هو مؤسّس الدولة السعوديّة الثانية، لأنّه كان يحكم بصورة مستقلّة رغم اعترافه بسلطة الامبراطوريّة العثمانيّة شكليّاً والمصريِّين فعليّاً. ولكنه من غير الممكن الكلام عن الإستقلال الحقيقي للإمارة الجديدة إلاّ بعد جلاء المصريِّين نهائيّاً عن الجزيرة العربيّة عام ١٨٤٠. كان الأئمة السابقون يتحدّرون من عبد العزيز بن محمد بن سعود، في حين أنّ تركي وجميع الحكّام اللاحقين، بمن فيهم الملك الحالي فهد، وهو من سلالة تركي، كانوا يتحدّرون من عبدالله بن محمد بن سعود.

وفي أواخر عام ١٨٢٤، استقرّ تركي في الرياض التي ظلّت عاصمة لنجد، ثمّ للعربيّة السعوديّة بأسرها حتى اليوم. وبدأ إنشاء المسجد والقصر والتحصينات. وفي نيسان (أبريل) ـ أيار (مايو) ١٨٢٥، توجّه أمير الرياض إلى منطقة الخرج وأخضعها بعد معارك. وسيطر تركي على العارض والخرج والحوطة والمحمل وسدير والأفلاج والوشم. وفي منطقة القصيم خضعت له

بعض الواحات فقط. وثبّت تركي منصبه كحاكم للرياض عام ١٨٢٤؛ وفرّ فيصل ابن تركي من الأسر المصري ما بين عامي ١٨٢٧ و١٨٢٨، فقد كان مقدّراً له أن يحكم إمارة الرّياض مرّتين.

مقتل تركي وحكم ابنه فيصل

كانت القبائل البدويّة تتصرّف على هواها في أواسط الجزيرة غير آبهة بمنزلة أمير الرياض، على الرغم من أنّ تركي استطاع فرض سلطة السعوديّين على حاكم البحرين عبدالله بن أحمد آل خليفة في عام ١٨٣٠، والذي كان يسيطر كذلك على قسم كبير من قطر؛ وحاكم الشارقة سلطان بن صقر سعى بدوره لمباحثات مع تركي، وكذلك راشد حميد من العجمان.

ولكن، في عام ١٨٣٣، شنَّ حاكم البحرين عمليّات حربيّة ضد أمير الرياض، وحاصر فيصل بن تركي الفارّ من الأسر بلدة سيهات التي تمركز فيها أنصار البحرانيّين. وفي اللحظة نفسها، وصله نبأ مقتل أبيه في الرياض على أيدي مرتزقة مشاري عبدالرحمن الذي استولى على السلطة في العاصمة.

ففي التاسع من أيار (مايو) من عام ١٨٣٤، خرج تركي من باب جانبي بعد صلاة الجمعة، فأحاط به ثلاثة اشخاص وشهر أحدهم المسدّس وأطلق النار، فحاول عبد الإمام زويد أن يدافع عنه، فأصاب أحدالقتلة بجرح، وفرَّ هارباً إلى فيصل، وظهر مشاري في الحال شاهراً سيفه وطالب السكّان أن يبايعوه. وبعد شهر وصل فيصل وأنصاره إلى العاصمة وباغتوا مشاري وقبضوا عليه وأعدموه. إلاّ أنّ الاضطرابات والنزاعات القبليّة عمّت نجد بعد مقتل تركي طيلة تسعة أعوام اعتلى خلالها العرش في الرياض أربعة من آل سعود.

واستلم فيصل الحكم في الرياض وهو في الأربعين من عمره، وتقاطر إليه القُضاة وأمراء الواحات وشيوخ البدو وأعلنوا ولاءهم له. وكان نفوذه كبيراً في عمان أيضاً، كما أنّ حاكم البحرين وافق على دفع جزية رمزيّة له مقدارها ألفا ريال... وعلى الرغم من هذا، فقد كان قلقاً للأنباء الواردة من الحجاز والتي تؤكّد أنّ المصريّين يستعدّون لهجوم شديد.

وفي تموز (يوليو) ١٨٣٦، هجمت من القاهرة جحافل بقيادة إسماعيل، وكانت معزّزة بالمدفعيّة. وفي شهر أيار (مايو) ١٨٣٧، سقطت الرياض التي دخلها إسماعيل بك وخالد بن سعود، فانتهت بذلك الفترة الأولى من حكم فيصل. واتجه المهاجمون نحو الجنوب للقضاء على فيصل المتمركز في الدلم التي حوصرت شهراً وسقطت في ١٠ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٣٨، واقتيد فيصل أسيراً إلى مصر مرّة ثانية وسقطت أواسط الجزيرة مدمّرة مرة أخرى تحت أقدام المصريِّين.

البريطانيّون يمنعون تقدّم المصريِّين

إستولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٩، وأنشأت قاعدة بحريّة بريطانيّة ومحطّة للفحم في القسم من المحيط الهندي؛ وكان المقيم البريطاني هانيل قد زار إمارات السّاحل ووقّع اتفاقيّات مع أربعة من حكّامها، فأيّدوا الإنكليز. وكتب هانيل رسالة إلى سعد بن مطلق ينصحه فيها بالعودة إلى نجد، وراح يحرّض قبائل عمان ضدّه... وبإجراءاتها هذه حالت دون تقدّم المصريِّين إلى عسير واليمن وغيرها، إضافة إلى إخفاق محمد علي في تحقيق الإنتصارات خلال معاركه، وفشل أحمد باشا المقيم في مكّة وابراهيم باشا كوجوك في الحديدة في حملاتهما.

كما أنّ انهيار امبراطوريّة محمد علي في مصر عام ١٨٤٠، كان له تأثير في جلاء قوّاته عن نجد واليمن في آذار (مارس) من العام نفسه، ومن ثمّ قوّات خورشيد من نجد والمنطقة الشرقيّة وقوّات إبراهيم كوجوك من اليمن، إذ كان محمد علي بحاجة إلى هذه القوّات لحشدها قريباً من مصر تحسّباً لحرب كبرى بين مصر وفرنسا من جهّة، وبين تركيا والإنكليز وخلفائهم من جهّة أخرى.

وغادر المصريّون أواسط الجزيرة العربيّة إلى الأبد، من غير أن يدرك أحد هذا الأمر حينها، إذ تركت في نجد حاميات رمزيّة من جنود مصريِّين ليرفعوا العلم ويدعموا خالد، الذي لم يتمكّن من البقاء في الحكم إلاّ عاماً واحداً بعد جلاء قوّات خورشيد عن أواسط الجزيرة.

الفصل الثاني عشر

الدولة السعودية الثانية

(١٨٤٣-١٨٦٥)

هرب فيصل بن تركي من الأسر في مصر عام ١٨٤٣، ويُقال إنّه تمكّن من الفرار بمساعدة عباس باشا حفيد محمد علي... تسع سنوات من الفوضى والصراع الداخلي والأجنبي تمكّن من بعدها فيصل أن يكون سيّداً في دياره، حاكماً قويّاً ذا خبرة، يعرف إنشاء العلاقات مع العالم الخارجي... ففي صيف ١٨٤٣ سقطت الرياض في يده، ثمّ سيطر على المناطق الوسطى في نجد، وحاصر الدمام في خريف ١٨٤٣ محاولاً استعادة المنطقة الشرقيّة حيث يسيطر البحرانيّون، واستسلمت الدمام في آذار (مارس) ١٨٤٤.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٥ هجم بعساكر كبيرة على العجمان وأخضعها، وانشغل في الجنوب بالأفلاج ووادي الدواسر. وظلّت العلاقات ودّية بين حائل والرياض واعتبر عبدالله نفسه تابعاً لفيصل، وبالتالي كانت حائل تابعة للحكومة المركزية. وتزوّج ابن فيصل الأكبر من ابنة عبدالله بن رشيد؛ وعندما توفّي هذا الأخير حلّ محلّه ابنه طلال وأعلن استمرار تبعيّته للرياض.

وفي السنوات اللاحقة، انصبّ اهتمام أمير الرياض على مواجهة غزوات مختلف القبائل في عنيزة وبريدة، وعلى مواجهة التمرّد الذين شارك فيه الفقراء من دون الأغنياء الذين أيّدوا أمير الرياض فيصل... وفيصل اضطر إلى تنحية حاكم المنطقة الذي عيّنه بنفسه، بينما بقي زعيم المتمرّدين عبدالله بن يحيى في منصبه.

معركة الجهراء

ظلّ أمير الرياض يواجه تمرّداً؛ ففي عام ١٨٦٠ تمرّدت العجمان، فأرسل الأمير قوّات كبيرة بقيادة ابنه عبدالله إلى الشرق حيث نشبت على مسافة ثلاثين كيلومتراً تقريباً جنوبي مدينة الكويت، في ٩ نيسان (أبريل) ١٨٦٠، معركة طاحنة. إلاّ أنّ النصر الحقيقي كان بعيداً، وأعلن فيصل الجهاد. ونشبت معركة الجهراء في ٢٧ آذار (مارس) ١٨٦١، وتمّ من جديد دحر العجمان والمنتفق. وحاصر النجديّون خصومهم ودفعوهم إلى مياه الخليج، وعندما ارتفع المد ابتلعت المياه ١٥٠٠ محارب ممّن لم يكونوا مطّلعين على هذا النوع من الأخطار. وبعد النصر شرقاً توجّه عبدالله إلى القصيم، واخْتُطف عبد العزيز وقُتل ابنه أمير بريدة وهو يحاول الهرب إلى عنيزة فمكّة، واخْتُطف ابن آخر لحاكم بريدة...

هذان الإنتصاران الكبيران لم يمنعا الخطر عن إمارة فيصل، فقد تمرّدت عنيزة والقصيم على الرياض، بعد الحرب الأولى ما بين ١٨٥٤ و١٨٥٥، ووقعت الحرب الثانية عام ١٨٦٢... وأعلن فيصل الجهاد من جديد ونشبت معركة كبرى في أطراف عنيزة واُضطرّ أهالي عنيزة إلى الإحتماء بأسوار مدينتهم. وفي بداية عام ١٨٦٣ عقد صلح وأبقى أمير الرياض على الحكّام السابقين...

التنظيم في الدولة السعوديّة الثانية

فقدت الوهابيّة في الدولة السعوديّة الثانية طابعها المتعصّب المتشدّد... وكان التنظيم العسكري لإمارة الرياض في عهد فيصل مثلما كان في عهد السعوديّين الأوائل... إذ أنّ درجة السيطرة المركزيّة القائمة في مختلف مناطق وأقاليم الدولة السعوديّة الثانية، شأنها شأن الدولة السعوديّة الأولى، كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، وتتقلّص كلّما ابتعدت المسافة عن الرياض. ويعود دور للوضع الداخلي في هذه المنطقة أو تلك ولوزنها النسبي وللمعتقدات الدينيّة عند أهلها. وكان حاكم الرياض يعيّن الأمراء، وكذلك علماء الدين في المناطق الوسطى.

تدهور صحة فيصل

لم يكن بلاط فيصل كبيراً، كما قد يخيّل إليكم... لم يكن مثقلاً بالرسميّات ولا بالجهاز البيروقراطي... وكان الأمير يتشاور فقط مع أقرب المقرّبين إليه، في معظم الأحيان...

ووزّع المناصب المربحة والرفيعة على أفراد العائلة. كما أعلن فيصل أنّ عبدالله وريثه، فأشركه في الشؤون الحربيّة وفي حكم الرياض والمناطق الوسطى. ومنح ابنه الثاني سعود المنافس لعبدالله استقلالاً كبيراً في حكم المناطق الجنوبيّة... ومحمد الإبن الثالث المناطق في شمال العاصمة... فيما بقي عبد الرحمن، الإبن الأصغر ولي عهد المستقبل وأب مؤسّس الدولة السعوديّة الجديدة. وتقسيم الإمارة على هذا النحو هيّأ لنزاعات مرتقبة مزّقت في ما بعد الدولة السعوديّة الثانية.

وفي السبعين من عمره، تدهورت صحّة فيصل، وسلّم زمام الأمور إلى ابنه عبدالله لتصريف شؤون الدولة. وقد اعترف المقيم البريطاني ل. بيلي بصرامة وعدالة فيصل رغم موقف الإنكليز المعادي لإمارة السعوديِّين... وتوفي فيصل بن تركي في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٦٥.

الفصل الثالث عشر

إمارة الرياض

بسط فيصل سيطرة الرياض على قسم كبير من أواسط الجزيرة وشرقيّها، وتوقّف التدخّل الخارجي في شؤون إمارة نجد. غير أنّ علامات الضعف، وأحياناً كثيرة عجز السلطة المركزيّة والنزعة الإنفصاليّة لدى الإقطاعيّين وتحدّيات القبائل البدويّة لفيصل مرّة بعد أخرى ونزواتهم، لم تجعل أحداً من المتابعين لإمارة الرياض في ذلك الوقت يتوقّع لها عمراً مديداً. فضلاً عن ظلّ الامبراطوريّة البريطانيّة المخيّم من جهة الخليج وبحر العرب. وتعمّق الخلافات بين أسرة أمير الرياض والإنقسامات فيما بينها لا سيّما بعد وفاة الأمير فيصل بن تركي وتسلّم وليّ العهد عبدالله الحكم.

وكان عبد الله يدرك دوماً أنّ الإنكليز يناصبونه العداء... وراح يتبادل المراسلات مع المعتمد البريطاني بيلي ساعياً إلى الحيلولة دون تدهور العلاقات، وإلى تأمين اعتراف الإنكليز به حاكماً للإمارة، وإبعاد الدسائس البريطانيّة المحتملة وتوجيهها صوب سعود. لذلك اتفق عن طريق ممثله مع بيلي في شأن التسوية، غير أنّه لعب لعبة الضعيف وحاول أن يبحث في الأتراك عن عون له ضد الإنكليز...

وفي تلك الأثناء، استجمع سعود القوّات في مناطق جنوب نجد للصراع في سبيل عرش الرياض، فعبأ عبدالله سكان المدن وبدو نخلة ووجّههم ضد شقيقه سعود المتمرّد، فأُصيب سعود وفرّ إلى بدو آل مرّة، ونكّل عبدالله بأنصار سعود والواحات المتمرّدة في وادي الدواسر، في حين عالج سعود جروحه وشفي ليتحدّى أخاه بعد أربعة أعوام.

مستقبل السعوديَّة يتأثّر بالقرارات الخارجيّة

تظهر الروايات والوقائع في آن تشابك مصير الجزيرة العربيّة والسعوديّة مع التطوّر العام للمنطقة، فإنّ مستقبل الكيان والوحدات في الحزيرة، لم يتحدّد فقط بسبب القوى في البادية، بل كذلك بالقرارات المتخذة في لندن والقاهرة واسطنبول وبرلين وسان بترسبورغ وباريس. والمعروف أنّ بريطانيا كانت أقوى دولة استعماريّة في القرن التاسع عشر، وهي بعدما استولت على مصر عند شق ترعة السويس عام ١٨٢٩، راحت تفتّش عن السبل الكفيلة لتضمن لها السيطرة على الجزيرة العربيّة وإن بطريقة غير مباشرة.

كما أنّ الامبراطوريّة البريطانيّة كانت قد ابتلعت الإمارات الصغيرة على سواحل الجزيرة.

صراع الأشقاء على إمارة الرياض

في خريف ١٨٧٠، دخل سعود بن فيصل مع قبائل العجمان وآل مرة العقير والإحساء، فيما وصل محمد بن فيصل على رأس قوّات عسكرية لاستعادة الإحساء وعاصمته الهفوف بأمر من شقيقه الأمير عبدالله. ونشبت معركة الجودة في البادية عام ١٨٧٠، وفي اللحظة الحاسمة انقلب بدو سبيع ضد محمد وانحازوا إلى سعود. وأُلقي القبض على محمد وزجّ في سجن القطيف حتى أطلق الأتراك سراحه. وأعلن الإقليم الشرقي كلّه الولاء لسعود. وتدهورت الأوضاع في إمارة عبدالله... وما بين شهري نيسان - أيار (أبريل - مايو) ١٨٧١، تحرّك سعود نحو الرياض، ودخلها، ونهبت عساكره البدوية المدينة. لكن سلطته كانت ضعيفة ومشوّشة، وصار الناس يأكلون جيف الحمير وجاع الكثيرون فماتوا... فاغتنم مدحت الحاكم العثماني الكبير الأمر لضم أراض جديدة إلى امبراطوريته، فنشأت أزمة دبلوماسية بين لندن والآستانة بسبب تدخّله في شرقي الجزيرة... وجلب الأتراك من حاكم الكويت ٣٠٠ سفينة لغزو الإحساء. وفي أيار (مايو) ١٨٧١، احتل الأتراك المدن والقلاع الرئيسية في الإقليم... وهكذا فقد الشقيقان السعوديّان الإقليم الشرقي وفقد السعوديّون واحات البريمي.

إستمر الصراع داخل أُسرة آل سعود... وفي مطلع عام ١٨٧١ عاد عبدالله إلى الرياض الميؤوس من حالتها... وفي آذار (مارس) ١٨٧٣ عاد سعود مجدداً إلى الرياض. وفي منتصف السبعينات ظهر على المسرح عبد الرحمن الإبن الرابع للأمير فيصل. وفي آذار (مارس) ١٨٧٤ تخلّى الأتراك عن حكم الإحساء للتقليل من النفقات. وفي العام نفسه، تزعم عبد الرحمن بن فيصل انتفاضة على الأتراك في الإقليم الشرقي...

إلى هذا، كانت سلطة سعود في نجد منهارة، ولم تعد شمّر والقصيم خاضعتين له. والرياض صارت إمارة مقطعة الأشلاء. وتوفّي سعود في كانون الثاني (يناير) ١٨٧٥، وصار عبد الرحمن بن فيصل حاكماً للرياض وحارب شقيقيه عبدالله ومحمد. ثم تخوّف من أولاد سعود الأربعة الذين استولوا على الرياض، فلجأ إلى عبدالله واتحد الأخوة الثلاثة وشكّلوا جبهة بزعامة عبدالله. وفر أولاد سعود في الخرج والإحساء، ودخل عبدالله الرياض مجدّداً بعد وفاة فيصل بأحد عشر عاماً، وتكون السلطة بذلك قد تبدّلت في الرياض للمرّة الثامنة.

عبد العزيز مؤسّس السعوديّة

في عام ١٨٨٠، ولد لعبد الرحمن طفل سمّاه عبد العزيز، صار فيما بعد ملكاً للعربية السعودية، ورأى أنّ هناك ثلاثة أسباب لسقوط عمّه الأمير عبدالله:

١ ـ وجود أبناء أخيه في الخرج يحرّضون القبائل عليه.

٢ ـ مناصرته لآل عليان أمراء القصيم السابقين على أعدائهم آل مهنّا، الأمراء الحاكمين في ذلك الحين.

٣ ـ ظهور محمد بن الرشيد الطامع بحكم نجد، والذي تحالف مع آل أبي الخليل على ابن سعود.

وانتهى وجود دولة السعوديّين الثانية رسميّاً في أواخر عام ١٨٨٧.

وفي شتاء ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠، عاد عبدالله بن فيصل إلى الرياض مع أخيه

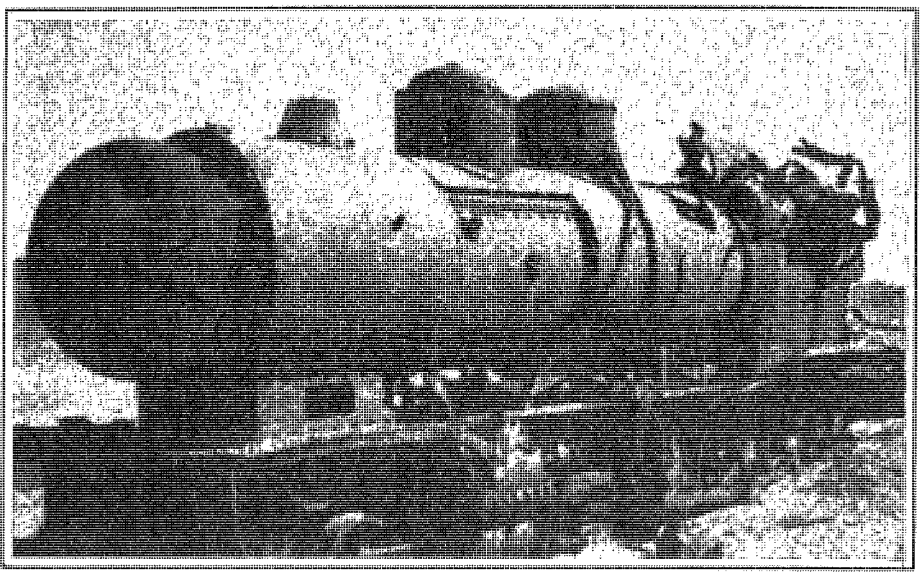
عبد الرحمن ومات حزيناً في عاصمته الخالية، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٩، وصار عبد الرحمن أميراً للرياض، وتحالف معه أهالي عنيزة وبريدة في القصيم ضد سلطة الشمريّين. واستمرّت الصراعات ودار قتال دام شهوراً في المليدة والقصيم بين قوّات ابن الرشيد وحلفاء عبد الرحمن الذين هُزموا، ففرّ هو إلى البادية.

بريطانيا تقاوم الأتراك

حكم محمد العبد الله الرشيد حتى سنة ١٨٩٧ لأنّه كان مريضاً بداء الجنب. وكان عقيماً لم يخلف ولداً، فورث الحكم عنه ابن اخته عبد العزيز المُتعب في الثلاثين من عمره، وكان يجيد استخدام السيف أكثر ممّا يجيد السياسة، فبدّد كلّ ما خلفه له خاله...

وفي أواخر القرن التاسع عشر وقعت إمارة جبل شمّر تحت تبعيّة متزايدة للأمبراطورية العثمانية، فغدت وسيلة لنقل النفوذ العثماني إلى شبه الجزيرة، أكثر فأكثر؛ وفي سبعينات القرن التاسع عشر استطاع الأتراك أن يحتلّوا اليمن وعسير من جديد؛ ومع أنّ ركود الأمبراطورية العثمانية استمرّ طويلاً، فإنّ الجزيرة العربية، ولا سيّما السعودية تعزّز فيها الوجود التركي وبدا أهم عامل في شؤونها بعد الإنكليز... ولم تستتب البنية السعودية، وبالتالي لم يستقر النظام قبل نهاية الربع الأوّل من القرن العشرين...

... وفي عام ١٩٠٨ افتتحت في الحجاز سكة حديد معان ـ المدينة المنوّرة، ممّا ساهم في تحسين المواقع الاستراتيجية العسكرية للأتراك في غربي الجزيرة. ولم تتمكّن الامبراطورية العثمانية من تعزيز مواقعها بسبب مقاومة بريطانيا، وبسبب تصاعد الميول المعادية للأتراك عند عرب الجزيرة. كما أنّ والي جدّة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان في أشد نزاعه مع شريف مكّة، وكان الأتراك في حينها يشرفون على طرق القوافل. وانتقل الشريف من مكّة وعائلته إلى المدينة المنوّرة بسبب تصرّفات الوالي في جدّة... إلاّ أنّ جمال باشا نُحّيَ من منصبه عندما اندلعت ثورة «تركيا الفتاة» بوصفه من أنصار النظام السابق... وظلّ الإنكليز قلقين من



قاطرة من بقايا الخط الحديدي للحجاز

إمارة حائل لأنّها تابعة مخلصة للأتراك... فركّزت السياسة البريطانية على مهمّة إضعاف هذه الإمارة... وراح الإنكليز يؤيّدون خصوم الأتراك وجبل شمّر في الجزيرة العربية، ويحرّضونهم، الأمر الذي كان له تأثير مباشر في عودة آل سعود إلى السلطة...

الفصل الرابع عشر

عبد العزيز
يؤسس الدولة السعودية

في مطلع القرن العشرين، نشأ مجدّداً في الجزيرة العربيّة وضع ملائم لبعث إمارة الرّياض. وغدت عائلة آل سعود التي استقرّت في الكويت مركز جذب طبيعيّاً لجميع النجديّين المتذمّرين من حكم آل الرشيد. وفي خريف ١٩٠٠، غزا عبد الرحمن بن فيصل أحد بطون قحطان ووصل إلى مناطق السدير، وعاد إلى الكويت يستعدّ لحملات عسكريّة جديدة على نجد.

وفي أواخر عام ١٩٠٠ وأوائل عام ١٩٠١، جمع حاكم الكويت عساكره من البدو والحضر وتوجّه إلى القصيم، والتحق به عبد الرحمن وبعض الأمراء السعوديّين الآخرين الذين انضوت تحت رايتهم كتائب من قبائل العجمان ومطير. وكتب آداموف قنصل روسيا في البصرة يقول: «حقّق الجيش الكويتي انتصاراً واستولى على الرّياض، لكن عبد العزيز بن متعب عبّأ كلّ قوّاته وجلب أسلحة من الأتراك ودمّر الكويتيّين وحلفاءهم في شباط (فبراير) ١٩٠١ على مقربة من واحة الصريف. وفي الوقت حينه حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن الإستيلاء على حصن المسمك في عاصمة أجداده الرّياض، واقتحم المدينة. غير أنّ الحاكم الشمّري صمد في الحصن وتحمّل الحصار. وأصرّ عبد العزيز على أن يجرّب حظّه مرّة جديدة، وألحّ على أبيه بأن يسمح له بالتوجّه إلى الرّياض.. فقاد حملة تضم ٤٠ مقاتلاً فقط، وكان من بينهم شقيقه محمد بن عبد الرحمن وابن عمّه عبدالله بن جلوى. واتجهوا عبر الإحساء نحو الجنوب الخالي ما بين شهري تشرين الثاني وكانون الأوّل (نوفمبر وديسمبر) في عام ١٩٠١. وفي الطريق، انضم إليهم محاربون من قبائل عجمان وآل مرّة وسبيع والسهول، وكبر الفصيل وصار تعداده آلاف الأشخاص، وغزا هؤلاء قرى نجد التي بقيت تؤيّد آل الرشيد.

وراح ابن متعب يستنجد بالعثمانيّين في بغداد والبصرة لإبعاد عبد العزيز عن الإحساء، فخاف البدو وتخلّوا عنه. لكنه بقي مع الأربعين شخصاً؛ هنا أدرك عبد الرحمن أنّ ابنه يقوم بمغامرة، فطلب منه التراجع وأرغمت السلطات التركيّة فصيله على ترك المنطقة. وحاول عبد العزيز أن يجرّب حظّه مرّة ثانية رغم معارضة أبيه. وفي ١٢ كانون الثاني (يناير) ظهر في أطراف عاصمة السعوديّين السابقة، واستراح في إحدى واحاتها الصغيرة وترك جماعة من أفراده مع الإبل والخيل وأوصاهم بالفرار إذا لم يعد في الفجر. أمّا هو والباقون فتحوّلوا صوب أسوار المدينة، وفي عزّ الليل عبر مع محاربيه أسوار المدينة في منطقة «الشمسيّة» وترك عشرة رجال احتياطاً، وتوجّهوا إلى منزل الحاكم الشمّري عجلان بن محمد ولم يكن فيه، فحبسوا زوجته وأمرأة غيرها في إحدى غرف المنزل وانتظروا قدومه، وباغتوه عندما رأوه يظهر من بوّابة الحصن مع قليل من الحرس، فأطلق عبد العزيز النيران. حاول الشمّريون الهرب، لكن رجال عبد العزيز استفادوا من عنصر المباغتة وتمكنّوا منهم. وأقسم أهل الرّياض يمين الولاء لعبد العزيز الذي باشر على الفور بتحصين أسوار المدينة، وراح يتهيّأ لينزح من الفرات الأوسط إلى حائل كي يجمع العساكر ويتوجّه إلى الرّياض... ووصلت إليه إمدادات من الكويت سبعون مقاتلاً على رأسهم أخوه سعد، فقام عبد العزيز بحملة ناجحة على الجنوب واحتل الخرج قبل وصول الشمّرين. وفي أيار (مايو) ١٩٠٢، وصل عبد الرحمن إلى الرّياض، ويشير المؤرّخون العرب والأوروبيّون بالإجماع إلى أنّ الأب والإبن كانا يتفاهمان، ويثق الواحد منهما بالآخر. وعندما جمع عبد العزيز العلماء ووجهاء الرّياض طلب إليهم أن يقسموا يمين الولاء لأبيه عبد الرحمن ليكرّمه فرفض والده هذا الأمر، وصار عبد العزيز حاكماً للرياض. وتابع زحفه وتوالت انتصاراته، وأولى انتصاراته بعثت نواة إمارة الرياض بدعم قوي من الكويتيّين ودعم غير مباشر من الإنكليز.

في القصيم

تعزّز التحالف بين حاكم الكويت مبارك وأمير الرياض عبد العزيز وشيخ المنتفض سعدون ضد جبل شمّر. وعقد الجميع اجتماعاً في آذار

(مارس) في الكويت بهدف الأعمال المشتركة، وكانت الحرب بين نجد وشومر جزءاً من صراع بين الدول الكبرى لبسط النفوذ في حوض الخليج.

وفي مطلع عام ١٩٠٤، هاجم أمير الرياض عبد العزيز مع قوّاته القصيم... وفي آذار (مارس) ١٩٠٤، اقتحموا عنيزة ودارت معركة قربها، وهزم عبد العزيز قوّات الشمّريين... وسقطت عنيزة، وعيّن ابن سعود أحد أولاد الوجهاء أميراً عليها. واقتنع أهالي بريدة أنّ الدفّة تتطوّر لمصلحة أمير الرياض الذي احتلّ بريدة حين أرسل فصيلاً بقيادة صالح آل مهنا أبا الخليل... وهكذا، امتدّت سلطة ابن سعود من الرياض حتى القصيم عبر الوشم...

وإزاء العمليّات الحربيّة التي شنّها سعود، كتب حسن شكري العقيد التركي رسالة إلى عبد العزيز يقول له فيها: «إنّ جلال الخليفة الأعظم بلغه اضطراب الفتنة في نجد وأنّ يداً أجنبيّة محرّكة لها... لهذا بعثني إليكم حقناً للدماء ولمنع التدخّل الأجنبي في بلاد الملسمين». ثمّ تشكّى شكري من تعاون عبد العزيز مع مبارك أمير الكويت الذي يتعاون مع بريطانيا، «الدولة الأجنبية الكافرة...» مقترحاً على عبد العزيز عرض شكواه على السلطات العثمانية وليس على مبارك الذي أعلن العصيان على الخليفة... قلق حاكم الرّياض عبد العزيز لكنّه تصلّب في موقفه، وأعلمه أنّه سيعامله معاملة المعتدين فهو لا يثق به، وذكره بنهب سلطات الحجاز للحجّاج أمام الكعبة.

موقعة البكيرية

وقعت سلسلة من الصدامات العنيفة والعادية أدّت إلى موقعة البكيرية. فقد حدثت الموقعة في أواسط تموز (يوليو) ١٩٠٤ على وجه التقريب؛ وتؤكّد المراجع أنّ عدد القتلى من القوّات النظاميّة التركيّة تراوح ما بين ألف وألف وخمسمائة شخص، ومن حائل ٣٠٠ ـ ٥٠٠ شخص. أمّا القوّات السعودية فقد فقدت حوالي ١٠٠٠ شخص، وهذه الأرقام المبالغ فيها تشمل الخسائر بسبب وباء الكوليرا والقيظ والأمراض. غير أنّ المؤرّخ ضاري بن فهيد بن الرشيد أكّد أنّ متعب فقد مائة محارب بينما فقد عبد العزيز مائتين.

وهكذا اتّسع إطار الصدامات والصراع، لأنّ احتلال الرياض مثلاً، أسفر عن مقتل بضعة أشخاص لا غير. وفي معركة البكيرية أُصيب عبد العزيز بجراح ثخينة كاد يفقد حياته بسببها.

غير أنّ المعركة أخذت تتحوّل لمصلحة أمير الرياض، وقتل فيها أحد القادة العسكريِّين الأتراك، إضافة إلى عدد كبير من الجنود. واستولى ابن جلوى على المدافع التركيّة كلّها وأخذ كثيراً من الأسرى. فيما انهمك ابن متعب بنهب قرى القصيم وترك مؤنه ومعداته الثقيلة تحت حراسة مفرزة صغيرة عند البكيرية. وعندما سمع باقتراب قوّات عبد العزيز التي استلمت إمدادات، أرسل قسماً من قوّاته لنجدة مفرزة الحراسة. ولكن، كان عبد العزيز قد استولى على البكيرية وعلى مستودعاته.

موقعة الشنانة

بعد الهزيمة عند البكيريّة، توجّه ابن متعب إلى منطقة الرس والشنانة في القسم الغربي من القصيم، ووصل إليها في آب (أغسطس) من العام نفسه (١٩٠٤)، آملاً في الحصول على مساعدة الأتراك في الحجاز. غير أنّ مدينة الرس قرّرت هذه المرّة الانضمام إلى أمير الرّياض. لذا، نصب الشمريّون معسكرهم في الشنانة، ووصل إلى المنطقة نفسها عبد العزيز مع قوّاته الأساسيّة. ولم تقع المعارك خوفاً من حرّ الصيف. ولكن، تفشّى وباء الكوليرا في معسكر ابن متعب، وتفرّق البدو بحثاً عن غنائم منشودة في مطارح أخرى. وبقيت عند ابن متعب وحدات تركية من العراق وأفراد من جبل شمر فقط. في حين بقي في المعسكر السعودي أبناء المدن المخلصين لعبد العزيز. وكان الطرفان على أهبّة الإستعداد والنار تحت الرماد؛ ففي أواخر أيلول (سبتمبر) وقعت معركة بين الطرفين، عبد العزيز من جهة، وابن متعب والأتراك من جهة أخرى، والمكان قرب الشنانة؛ ففرّ الأتراك بنتيجتها مع الشمريِّين وفقدوا بضع عشرات من الأشخاص فقط. لكنّ السعوديِّين المنتصرين فازوا بكل أعتدة معسكر العدو وجماله وأغنامه وأغذيته وأسلحته وعدّة صناديق مليئة بالنقود الذهبية.

الصراع في سبيل جلاء الأتراك

زحفت إلى أواسط نجد قوّات فيضي باشا التركية، فسارع إلى نجدتها من المدينة المنوّرة ٧٥٠ شخصاً مع بطارية للمدفعية الميدانية بقيادة صدقي باشا.

وأحسّ ابن متعب بالعبء لازدياد تبعيّته للأتراك، فاختلف مع فيضي باشا وترك حماته الأقوياء... وحاول أمير بريدة صالح بن حسن آل مهنا التخلّص من آل الرشيد ومن السعوديّين وخضع للأمبراطورية العثمانية. وفي نيسان (أبريل) ١٩٠٥، دخل الأتراك بريدة واحتلوا عنيزة، وقسّمت نجد إلى وحدات إدارية، وواجهوا فيها صعوبات كبيرة بسبب قلّة الأغذية وكثرة الأمطار وفرار الجنود، فضلاً عن اهتمام الأتراك آنذاك بالأحداث في اليمن وبإخماد حركة الإمام يحيى بن حميد الدين في صنعاء. وفي ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٠٦، دارت في القصيم معركة بين السعوديّين والشمريّين قتل بنتيجتها ابن شمر.

ونجا أمير الرّياض حاكم بريدة صالح الحسن، وبعد فترة عيّن ابن عمّه محمد العبدالله أبا الخليل. وأخذ أمير حائل الجديد الأراضي الواقعة شمالي القصيم، فيما أخذ ابن سعود القصيم والأراضي الواقعة جنوبها أميراً. وفي الفترة عينها، دحر عبد العزيز بدو مِطر وتوجّه نحو بريدة لدحر الفصيل التركي فيها.

وفي صيف ١٩٠٥، عُيّن سامي باشا الفاروقي قائداً للقوّات التركية في نجد بدلاً من صدقي باشا. وكان الأتراك المرابطون في الجزيرة لأكثر من عامين ونصف يعانون من الجوع، واهترأت بزّاتهم. فقرّر سامي باشا، في ظلّ هذه الظروف، الجلاء في أواخر تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٠٦، وتابع الأتراك جلاءهم الكامل فيما بعد...

وفي العام ١٩١٢، انهمك الباب العالي بالحرب في أوروبا فأدرك عبد العزيز أنّه سيتمكّن من السيطرة على الإحساء قريباً، ولا سيّما أنّ الباب كان قد بعث إليه يطلب منه قوّات نجديّة لدعم الحامية التركية في الإحساء.

ضم الإحساء

في العام ١٩١٣، مُني الأتراك بالهزيمة في البلقان، فاستعدّ عبد العزيز فعلياً لحملة على الإحساء، فوصل إلى القصيم وأعلن التعبئة العامة.

وانضمَّ إلى قوّاته الإخوان المسلمون، الذين يؤمنون بالغزوات تحت راية «الإسلام الحقيقي». . . ولكن، لم يكونوا الأغلبيّة في قوّاته، بل كان هناك حضر نجد، والبدو المنضمّون إليه. وقبل أن يبدأ الحملة، تشاور مع الضابط الإنكليزي ليشمان ليضعه في تفاصيل الخطة. . وفي مطلع شهر أيار (مايو)، اقتحم عبد العزيز الإحساء بحوالي ٨ آلاف من الأعراب المسلّحين جيداً، ولم يجد صعوبة في احتلال المدينة.

الصراع بين عبد العزيز والشريف حسين

كان لا بُدّ من الصدام بين الشريف حسين وعبد العزيز ولا سيّما بعد استيلاء هذا الأخير على الّرياض، وتوطيد مركزه في نجد، وسيطرته على الإحساء المحاذية لممتلكاته من ناحية الشرق والمنفذ البحري في آن، وانتزاعها من الامبراطورية العثمانية التي كانت تعتمد على مواردها الطبيعية.

ولم تحل بريطانيا دون طرد الحامية التركية من الإحساء. . . فزار الرّياض المعتمد السياسي البريطاني شكسبير الذي كان قد تقابل مع ابن سعود سابقاً، وتناقشا في الوضع العام، وبحثا عن صلاحيات أخرى. وجرت مباحثات بين عبد العزيز والسلطات العثمانية التي كانت عاجزة عن استعادة الإقليم المفقود، بسبب حاجة الباب العالي إلى القوى وإلى النقود اللازمة. . . ناهيك عن أنّ الحكومة البريطانية التي تتابع ما يجري في الإحساء، حاولت فيما بعد إعاقة الأتراك عن ترسيخ أقدامهم مرّة جديدة على سواحل الخليج.

وفي آذار (مارس) ١٩١٤، كانت بريطانيا وافقت على اقتسام شبه الجزيرة العربية مع الامبراطورية العثمانية، ولكنَّ هذه المعاهدة لم تبصر النور بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى.

الفصل الخامس عشر

في

الحرب العالمية الاولى

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦، أعلن الشريف حسين نفسه ملكاً على العرب جميعاً، وهذا ما لم يكن ابن سعود يتقبّله أو يعترف به، لأنّه كان يحلم بتأسيس دولة سعودية كبرى يؤلف الحجاز جزءاً منها. ناهيك أنّ أحداً خارج الحجاز لم يعترف به ملكاً على جميع العرب. غير أنّ الحكومتين البريطانية والفرنسية أبلغتا الحسين بأنّهما يعترفان به ملكاً على الحجاز.

معركة تربة

كان الحلفاء المنتصرون يتصارعون في المؤتمرات السلمية من أجل الإنتداب والامتيازات في الشرق الأدنى، ونسوا أن يهتمّوا بمسار تطوّر الأحداث في شبه الجزيرة العربية... وأُصيب الناس بالحمّى الإسبانيولية آنذاك، إلاّ أنّ أمراً لم يحل دون نشوب نزاع جديد بين نجد واليمن على الحدود.

ففي مطلع أيار (مايو) ١٩١٩، أرسل الملك حسين شاكر بن زيد على رأس فصيل من مشاة القوى النظامية للإستيلاء على الحزمة، غير أنّ قواته مُنِيَت بالهزيمة... وأرسل عبد، حاكم مكة، قوّات ابنه الأمير عبدالله لاحتلال الحزمة، غير أنّ سلوك الملك حسين واستياءه من السياسة البريطانية وتذكيره للإنكليز بأنهم خرقوا التزاماتهم وادعاءه بأنّه ملك العرب، كل هذا دفع لندن إلى إيقاف الشريف عند حدّه. وفي ١٩ أيار (مايو) ١٩١٩، سيطر عبدالله على واحة تربة، على مقربة من الطائف، ونهبها جنوده... وفي ٤ تموز (يوليو) من العام نفسه جاء المعتمد البريطاني إلى عبد العزيز يحمل رسالة يطلب فيها إليه أن لا يتحرّك نحو الطائف وأن يعود إلى نجد حالما يصل إليه الكتاب وإلاّ فكل معاهدة ما بين الإنكليز والأمير ستكون ملغاة.

ونصحت الحكومة البريطانية الشريف حسين بأن يفاوض ابن سعود في عقد الصلح، ولكنّه رفض العمل بهذه النصيحة، وتحالف مع ابن الرشيد وحاكم شمّر، عدوّ السعوديِّين الألد. فيما خضع ابن سعود بشكل أو بآخر لمطالب الإنكليز، ولكنه ظلّ يعتقد، لا بل يعرف، بأنّ الحجاز سيكون ملكاً له في نهاية المطاف. واعتبر المستشرقون والمؤرّخون أنّ معركة تربة هي نهاية التاريخ الحديث وبداية التاريخ المعاصر للجزيرة العربية.

وتؤكد الوقائع أنّه مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، ازداد التنافس بين نجد والحجاز، ولم تكن عسير قد ضُمّت إلى نجد بعد... وكانت الحجاز تدّعي التهام الجزيرة العربية كلّها مع أنّها لم تكن تمتلك القوّة اللازمة. وعلى أشلاء الامبراطورية العثمانية توزّعت الدول الإستعمارية الأوروبية أراضي الإنتداب فيما بينها، وكتب لويد جورج يقول: «إنّ أحداً ما لا ينوي إرسال قوّات أجنبيّة لاحتلال جزء ما من الجزيرة العربية. فهي بلد فقير جداً لا يستحق أن تحتله دولة ضارية...». ولم يتبادر إلى ذهن أحد أنّ في هذا البلد يمكن أن توجد احتياطات خياليّة من البترول.

الأحداث التي أثّرت على الجزيرة العربية

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبتأثير نسبي من ثورة اكتوبر في روسيا، شهد العديد من البلدان العربية حركات التحرّر الوطني من مختلف الأشكال. وعلى الرغم من تنوّع القوى التي شاركت في تلك الحركات، فقد كانت موجّهة ضد الأنظمة الإستعمارية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا وضد التقسيم الإمبريالي للبلدان العربية ونظام الإنتداب الذي ابتدعته عصبة الأمم. وكانت انتفاضات ١٩١٩ و١٩٢١ في مصر، و١٩١٨ - ١٩٢٠ في العراق، والحركة الجماهيرية الشعبية المناهضة للإستعمار في ١٩١٨ - ١٩٢٤ في سورية ولبنان، والإنتفاضة السورية في ١٩٢٥ - ١٩٢٧، والإنتفاضة في عدن عام ١٩١٩. كل تلك الأحداث كان لها تأثير مباشر وغير مباشر على الجزيرة العربية. وبدا واضحاً مع كل هذه الصور أنّ زمان النظام الإستعماري بأشكاله القديمة قد ولّى تدريجياً.

الفصل السادس عشر

معاهدات
مفاوضات
اتفاقات

غدا الإنكليز عشيّة انتهاء الحرب العالمية الأولى القوّة الفعليّة الوحيدة في الشرق كلّه، لا بل في المنطقة العربية كلّها. . فهم استطاعوا منع عبد العزيز من مهاجمة الحجاز وجبل شمّر، لكنّهم تحاشوا التدخّل مباشرة في شؤون شبه الجزيرة العربية كلّها بغيّة التملّص من الإنفاق على حكامها.

وارتفع شأن إمارة نجد، ممّا أثار قلق أمير الكويت الذي تخوّف من انضمام قبيلة مطي إلى حركة الإخوان. . . إذ أنّ عبد العزيز أقام هجرة إخوانية على حدود الكويت ضمن حدود ديرة مطير. وجرى اشتباك بين الكويتيّين والإخوان انتهى بهزيمة الكويتيّين. واحتجّ سالم حاكم الكويت لدى الإنكليز عبثاً. وهكذا، بدا تدهور العلاقات بين الكويتيّين والإنكليز عوناً للنجديين لم يكن في الحسبان.

معاهدة المحمرة

تحدّت إمارة نجد ثلاثة دول معادية يحكمها أفراد الأسرة الهاشمية، وكانت تدور اشتباكات بين القبائل، تؤدّي إلى تفاقم النزاعات بين العراق ونجد. وفي تلك الأثناء كتب غلوب باشا قائد الجيش (الفيلق) العربي في الأردن: «لم تكن هناك حدود في أواسط الجزيرة. ولم تحاول الإدارة في بغداد قط أحكام سيطرتها في الصحراء لمسافة تزيد عن ميلين أو ثلاثة من الفرات. . .».

في ربيع ١٩٢٢، التقى ممثلون عن عبد العزيز وبيرسي كوكس في المحمرة، وألحّ الإنكليز على ضرورة إقامة حدود ثابتة بين العراق ونجد. وطالب الوفد النجدي برسم الحدود اعتماداً على تقسيم الديار التقليدي للبدو

الرحل. وفي ٥ أيار (مايو) ١٩٢٢، وقعت معاهدة المحمرة التي أتبعت بالعراق قبائل المنتفق والظفير والعمارات، بينما ألحقت قبيلة شمّر بنجد. فلم يوقّع عبد العزيز المعاهدة لأنّ الظفير بزعامة حمود بن سويط طلبوا حمايته، كما احتجّ الأمير بنفسه.

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٢٢، تحرّك الاخوان المسلمون في اتجاه الشمال الغربي نحو شرق الأردن، واستولوا على واحة الجوف واشتبكوا مع دوريّات إمارة شرقي الأردن، ثمّ اقتحموا وادي السرحان على مقربة من عمان شرقي الأردن. كذلك دنا النجديّون من حدود سوريا الواقعة تحت الإنتداب الفرنسي، وراحوا يهدّدون بقطع ممر الإرتباط المباشر بين الممتلكات البريطانية، في حين كان الإنكليز بدورهم يدرسون فكرة مدّ خط للسكك الحديد بين فلسطين والعراق عبر هذا الممر بالذات.

البروتوكول الأوّل بين الإنكليز ونجد.

رأى بيرسي كولس أنّه من الضروري وضع حدود ثابتة، واتفق مع أمير نجد على عقد لقاء شخصي. وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر)، بدأت أولى جلسات المفاوضات في عقير بين كوكس وعبد العزيز وامتدّت ستة أيام. ووضعت بروتوكولات (ملاحق) العقير، ووقعت في ٢ كانون الأوّل (ديسمبر) عام ١٩٢٢، وألحقت بمعاهدة المحمرة، وأجبرت سلطان نجد على الاعتراف بحدود العراق الخاضع للإنتداب.

هكذا، رسم البروتوكول الأوّل الحدود بين العراق ونجد وأُسس المنطقة المحايدة التي يحق للقبائل العراقية النجديّة أن ترعى أغنامها فيها. ومنحت القبائل النجدية الحق في مواصلة استخدام بعض الآبار في أراضي العراق بشرط ألاّ تستثمر مصادر المياه على الحدود لأغراض حربية. فراعت هذه الإتفاقية حدود الديرة التقليدية للقبائل كافة.

البروتوكول الثاني

نصّ البروتوكول الثاني على أنّ لأي قبيلة تروم أن تكون تحت رعاية

حكومة أخرى، الحق في ذلك. وإلى جانب رسم الحدود بين نجد والعراق، وقع عبد العزيز ومندوبون عن الكويت اتفاقية حول الحدود، ضمنت بدورها منطقة محايدة للبدو من الطرفين لاستخدامها لأغراض رعي الأغنام.

وقد كتب أحد المشاركين في مفاوضات العقير، وهو ديكسون، يقول: «في اليوم السادس قال السير بيرسي... لكلا الطرفين أنّ الوتيرة التي تجري عليها المفاوضات لن تفضي إلى تسوية شيء طوال سنة. وفي لقاء خاص اقتصر على بيرسي كوكس وابن سعود وأنا، لم يطق صبراً كوكس على ما سمّاه بموقف ابن سعود الصبياني من فكرة الحدود القبلية. ولم يكن السير بيرسي يجيد العربية كما ينبغي، فتولّيت الترجمة. كان أمراً غريباً أن يلاحظ المرء كيف يوبّخ المندوب السامي لصاحب الجلالة سلطان نجد وكأنّه تلميذ مشاكس. قال كوكس لابن سعود: أنا هو كوكس الذي يقرّر شكل الحدود وامتدادها العام... ورسم الحدود من الخليج العربي إلى شرقي الأردن. وفي مساء اليوم نفسه، كما يقول ديكسون... طلب ابن سعود مقابلة السير بيرسي على انفراد فاصطحبني معه وكان ابن سعود بمفرده وسط سرادقه الكبير الذي كان مضيفاً، قال متوجّعاً: «يا صديقي لقد حرمتموني نصف مملكتي. الأفضل أن تأخذوها كلّها وتسمحوا لي بالإستقالة». وظلّ هذا القوي الضخم المتسامي بأساة واقفاً، ثم انحدرت من مآقيه الدموع على حين غرة. تأثّر السير بيرسي وأخذ ينتحب هو الآخر. انحدرت الدموع على خدّيه وقال وهو يمسك بيد ابن سعود: «يا طويل العمر، أنا أعرف بدقّة حقيقة مشاعرك، لذا، فإنني أعطيك ثلثي أراضي الكويت، لا أعرف كيف سيكون وقع هذه الضربة على ابن الصباح».

... والذين يحاولون تقييم السياسة البريطانية في المنطقة، تأكّدوا أنّه لم يكن من مصلحة مركز القرار: عاصمة المملكة المتحدة لندن إيصال التناحر بين نجد والعراق والأردن إلى حدّ القطيعة.

إتفاقيتا بحرة وحدّة

في تشرين الأوّل (اكتوبر) عام ١٩٢٥، وصل الكولونيل كلايتون إلى

مقرّ عبد العزيز، في الحجاز، فأظهر ابن سعود مرة أخرى حنكة وسياسة مرنة، فوافق على إعطاء تنازلات في الشمال مقابل اعتراف بريطانيا الفعلي بضمّه الحجاز. وجرت مفاوضات، وما هي إلاّ أيّام معدودة حتى أسفرت عن إعلان اتفاقيتي بحرة وحدّة اللّتين وقّعتا في ١ و٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥.

وتخصّ اتفاقية بحرة الحدود بين العراق ونجد وتمنع غزو العشائر القاطهة في أراضي إحدى الدولتين على أراضي الدولة الأخرى وتحذّر من العقوبة التي ستلحق بالمعتدين، وتنظر في ذلك محكمة خاصة تتألّف وفق ما نصّت عليه الإتفاقية.

واتفاقية حدّة رسمت عمليّاً الحدود بين نجد وشرقي الأردن، وتنازل بموجبها سلطان نجد لشرقي الأردن عن الممر الذي يربطه بالعراق. وحذّرت الإتفاقية من مخاطر الدعاية الدينيّة على أراضي البلد الآخر، وهذا البند له علاقة بالتبشير بالدعوة الإخوانية. وستنظر في أيّ من الشكاوى محكمة خاصة وفق ما نصّت عليه هذه الإتفاقية أيضاً.

غير أنّ نزاعات الحدود تفاقمت بعد فترة وجيزة.

عبد العزيز ملكاً على الحجاز

بعد تبلّغه نبأ اتفاقيتي بحرة وحدّة، أدرك ملك الحجاز أنّ أيّامه في الحكم معدودة، وقرّر علي بن الحسين الإستسلام، لا سيّما أنّه يدرك أنّ أخويه في العراق والأردن حريصان على الاحتفاظ بعرشيهما أكثر من حرصهما على مؤازرته. ثمّ أوفد في ١٦ كانون الأوّل (ديسمبر) إلى القنصل البريطاني للتباحث في شروط الاستسلام مع ابن سعود، واستسلمت جدة في ٢٢ من الشهر نفسه وغادرها علي بن الحسين، ودخلها في اليوم التالي عبد العزيز... وفي الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦، اجتمع الناس من أنحاء الحجاز كافة في المسجد الحرام في مكة المكرّمة وتلي نصّ البيعة، وأطلقت المدفعية مئة طلقة. وتقبّل عبد العزيز البيعة من أشراف مكّة والوجهاء والأعيان وأركان المحكمة الشرعية وسواهم... وبذلك أصبح لقب عبد العزيز «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاته».

ودعا ابن سعود في عام ١٩٢٦ إلى مؤتمر إسلامي يُعقد في شهر حزيران (يونيو) بعد أداء فريضة الحج، لكي يضفي مزيداً من الشرعية على تولّيه الحجاز. واجتمع في المؤتمر في مكّة ٦٩ مندوباً عن المنظّمات الإسلامية في الهند ومصر والإتحاد السوفياتي وجاوا وفلسطين ولبنان وسوريا والسودان ونجد والحجاز وعسير وأفغانستان واليمن وغيرها...

عقبتان في وجه ابن سعود

لم يكد ابن سعود يحمل لقب ملك الحجاز حتى واجهته عقبتان رئيسيّتان أساسيّتان: الأولى، مشكلة العلاقة مع أتباعه الوهابيّين؛ والثانية، مشكلة وضعه بالنسبة إلى سائر العالم الإسلامي.

وشرع الملك عبد العزيز يؤكّد حرصه على نقاء الدين، ويحدّ في الوقت عينه من تعسّف الإخوان، وتجلّى ذلك في تلطيفه من تصلّب فقهاء الوهابيّين وإصرارهم على أنّ الدين يسر وليس عسراً. فأسّس في صيف ١٩٢٦، جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت إشراف عالمين من آل الشيخ. وأمر ابن سعود الإخوان بأن يبلغوا الجماعة بكلّ منكر يرونه شرط ألاّ ينزلوا العقاب بالناس وفق هواهم.

وتدريجيّاً، تحوّلت الجماعة إلى ما يشبه الشرطة الدينيّة، وفيما بعد وضعت هيئات الأمر بالمعروف التابعة للجماعة تحت إشراف مديرية الشرطة... وعند حلول صيف ١٩٢٨، كانت الهيئات تساهم في اجتماعات الحكومة، وتشدّد من رقابتها على أهالي الحجاز. وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جديرة بأن تشمل سائر البلاد، فأسّس في الرياض مديرية الأمر بالمعروف في صيف ١٩٢٩. اضافة إلى ذلك لقد وفّق إلى إقناع الفقهاء الوهابيّين بضرورة الإفادة من مبتكرات العلم الحديث، كالهاتف واللاسلكي، وكانوا يحسبونها بدعة إلحاديّة من عمل الشيطان.

أمّا بالنسبة إلى المشكلة الثانية، فنشأت عن تخوّف المسلمين من استيلاء الوهابيّين المتزمّتين على الدّيار المقدّسة، وتمثّلت في النقد الشديد الذي وجّه إلى ابن سعود من مختلف أرجاء العالم الإسلامي بسبب قبوله

عرش الحجاز من غير أن يستأنس في ذلك برأي المسلمين. وقد وفّق في معالجة مخاوف المسلمين، وضاقت الشقّة بين آراء فقهاء الوهابية وآراء المذاهب الإسلامية الأخرى، وانتهت المسألة إلى أن تصبح مع مرور الأيّام مسألة غير ذات موضوع.

وظلّت الدبلوماسية البريطانية ترى في الأمير عبد العزيز القوّة الفعليّة الوحيدة في الجزيرة، التي يمكن التعاون معها، وتخلّت بريطانيا عن آمالها في فرض وإبقاء الحماية على الحجاز ونجد وملحقاتها. وفي أيار (مايو) ١٩٢٧، أجرى المندوب البريطاني كلايتون مفاوضات مع عبد العزيز في جدّة. وفي العشرين من الشهر نفسه، عقدت «معاهدة صداقة وحسن تفاهم» ألغيت بموجبها المعاهدة النافذة لمدة سبعة أعوام، اتفاقية عام ١٩١٥، واعترفت «بالإستقلال التام والمطلق» لممتلكات ابن سعود. ومن الناحية الشكليّة لم تنص المعاهدة على أيّ امتيازات خاصة لبريطانيا. لكن ابن سعود التزم بالإعتراف بأنّ لبريطانيا علاقات خاصة مع إمارات الخليج ومحميّات عدن. ولم يعترف الملك بإلحاق معان والعقبة بشرق الأردن، إلاّ أنّه التزم بمراعاة الأمر الواقع، لحين رسم الحدود بين الحجاز وشرق الأردن بشكل نهائي. وشكّلت المعاهدة نجاحاً مهمّاً للدبلوماسية السعودية ولاستقلال الدولة الجديدة.

الفصل السابع عشر

بنية
المملكة العربية السعودية

أقامت العربية السعودية علاقات ديبلوماسية مع الإتحاد السوفياتي في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٦، وفي الأول من آذار (مارس) ١٩٢٦ مع بريطانيا العظمى، وفي الشهر نفسه مع هولندا وفرنسا وتركيا، وفي عام ١٩٢٨ مع ألمانيا، وفي عام ١٩٢٩ مع إيران وبولندا، وفي عام ١٩٣١ مع الولايات المتحدة الأميركية، وفي عام ١٩٣٢ مع إيطاليا، وفي عام ١٩٣٦ (بعد وفاة الملك فؤاد) مع مصر. وكان في السعودية عام ١٩٥٠ سفارتان: أميركية وبريطانية، أمّا الدول الأخرى فقد تمثّلت ببعثات دبلوماسية. وغادرت البعثة السوفياتية جدّة في ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، ولكن العلاقات الدبلوماسية لم تقطع رسميّاً بين البلدين، بل ظلّت مجمّدة عقوداً طويلة من السنين.

وفي عام ١٩٣٠، أصدر ابن سعود مرسوماً بتشكيل وزارة الخارجية التي أُسندت لابنه الثاني فيصل، نائب الملك في الحجاز.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢، تشكّل مجلس الوزراء في الحجاز برئاسة فيصل نائب الملك، وتشكّل مجلس الوكلاء بصلاحيّات مماثلة لمجلس الوزراء تقريباً. وضمّ المجلس الرئيس، أي نائب الملك، ووكلاء الخارجية والمالية والداخلية وأعضاء مجلس الشورى. وكانت وزارة الداخلية تضم إدارة الصحة والمعارف والبرق والبريد والتلفون واللاسلكي والقضاء والحربية ومديرية الأوقاف والكعبة والبلديّات والثروة المائية والمحاجر الصحية وخفر السواحل والشرطة العامة.

وكانت تأسّست في مكّة، منذ عام ١٩٢٥، «إدارة الأمن العام» التي عرفت في ما بعد باسم «مديرية الشرطة العامة»، وقد شكّلت شرطة حماية الأخلاق وشعب التفتيش والمحاسبة ومراقبة الأجانب. وشمل نشاط إدارة

الأمن العام كل أنحاء العربية السعودية. وفي مطلع الأربعينات، أُنشئت في مكّة مدرسة للشرطة. كما أنّه أيضاً، ومنذ عام ١٩٢٥، أُنشئت مصلحة الصحة العامة التي أخذت صلاحيّاتها ووظائفها بالإتساع. وبعد بضع سنوات أُنشئت إدارات للصحة في كبريات المناطق.

وعام ١٩٣١، أُنشئت مديرية خفر السواحل ومركزها جدّة، وأُوكلت إليها شؤون الموانىء، وخفر السواحل، ومكافحة التهريب وتنظيم الملاحة.

وعام ١٩٣٤، كان الحجاز قد قُسّم إلى ١٤ محافظة، ويخضع أمراء كل منها لوزير الداخلية شكليّاً، ولنائب الملك فيصل عمليّاً، وأُوكل الى المحافظين الإهتمام بشؤون البدو.

وحينما أصدر ابن سعود في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢، مرسوماً «حول توحيد أجزاء المملكة العربية»، أصبحت هذه المملكة كلاً واحداً من حيث التسمية وسلطة الملك المركزية، وليست واحدة من حيث التركيب الإداري. وظلّت الفوارق الإدارية بين نجد والحجاز قائمة لفترة طويلة. كما أنّه مهما تعقّد الجهاز الإداري البيروقراطي في المملكة العربية السعودية، فإنّ كل القرارات الأساسيّة تتّخذ من قبل الملك وحاشيته. لذا، فإنّ المقرّبين من العاهل كان لهم القدر الأكبر من السطوة في الدولة.

وتجدر الإشارة الى أنّ ابن سعود، في بداية حكمه كان يتحاشى إشراك أبنائه وسائر أفراد عائلته في قيادة الشؤون الإدارية. ولم يستثنِ من ذلك سوى ابنيه، سعود وفيصل، اللذين عيّنا نائبين له في نجد والحجاز على التوالي.

الشرع والوهابيّة

الإسلام بتفسيره الوهابي هو الإيديولوجيا التي اعتمدت في السعودية. الإقرار بوجود إله واحد (الله) وملك مذهب ديني واحد (الحنبلي)، تطلّب وجود نظام قانوني وقضائي واحد، وكانت هذه مهمّة صعبة في مجتمع متباين يضم فئات وشرائح اجتماعية مختلفة (البدو والحضر مثلاً، وغير ذلك).

إنّ الصراع من أجل تثبيت أحكام الشرع بصيغتها الحنبليّة لتحلّ محل

العرف العشائري لم يكن سوى إحدى العقبات في طريق إقامة نظام قضائي وقانوني موحّد في المملكة. فالحكومة المركزية واجهت بعد ضم الإحساء مشكلة الأقليّة الدينية، الشيعة؛ ويقول هاريسون إنّ السنّة (الوهابيّين) كانوا الأقليّة في الإحساء وهم من الحكّام والتجّار والمزارعين، والبقيّة من الشيعة وهم صيادو اللؤلؤ والحرفيّون والفلاحون. كما سكنت مجموعات شيعيّة صغيرة في مكّة والمدينة، وقطن عسير ممثلو إحدى الفرق الشيعيّة وهي الزيدية. وكان في الحجاز أعضاء من مختلف الفرق الصوفية: السنوسيّون والأدارسة والقادريّون والبكتاشيون، وقد انحسرت تدريجاً بفعل ضغط الوهابيّة التي رفضت الصوفية من حيث المبدأ.

كانت أوضاع الشيعة في دولة إسلامية «سنّية» خالصة صعبة للغاية. ففي عام ١٩٢٧ مثلاً، أصدر العلماء الوهابيّون بضغط من الإخوان فتوى تطالب عبد العزيز بمنع الشيعة من أداء الصلاة في الأماكن العامة... ومنعهم من الإحتفال بذكرى وفاة النبي وزيارة كربلاء والنجف، وألزمهم بأن يدرسوا «دين الله» على كتاب محمد بن عبد الوهاب «الأصول الثلاثة». ودعت الفتوى إلى هدم الأضرحة الشيعيّة كلّها، في حين رأى عبد العزيز أنّ هذه المطالب متطرّفة.

غير أنّه في عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧، صدرت أوامر ملكيّة أُنشىء بموجبها نظام قضائي موحّد للدولة، وأصبح القضاء قائماً على أساس الفقه الحنبلي. ولم يحدث القضاء تغييرات مهمة في نجد، بل في الرياض وفي بعض المدن الكبرى الأخرى حيث فصلت محاكم البدو والحضر.

وأسّست في الحجاز في أواخر سنة ١٩٢٧ ثلاثة أنواع من المحاكم:

١ ـ **المحاكم المستعجلة** والمؤلفة من قاضٍ واحد، واختصاصها النظر في القضايا المدنية التي لا يتجاوز المطلوب فيها ثلاثين جنيهاً استرلينياً، وفي قضايا الجنح والجنايات التي لا تصل إلى حدّ القتل أو القطع.

٢ ـ **المحاكم الكبرى**، وتضم قاضياً ونائبين له. وهي تنظر في القضايا التي لا تدخل ضمن اختصاص المحاكم المستعجلة.

٣ ـ **هيئة المراقبة القضائية في مكّة**، وهي بمثابة محاكم الإستئناف، وتتألّف من مدير وأربعة أعضاء، ويتولّى المدير الإشراف على سائر المحاكم والقضاة في الحجاز، وكان بمثابة وسيط بين الحكومة والمحاكم.

وكانت في الحجاز المحاكم التالية: في مكّة اثنتان من المحاكم المستعجلة ومحكمة كبرى وهيئة للمراقبة القضائية. وفي المدينة محكمة مستعجلة ومحكمة كبرى، وفي جدّة محكمة مستعجلة. وفي عام ١٩٣٢، أُنشئت في مكّة محكمة مستعجلة لقضايا البدو. وكانت رواتب القضاة من أموال الزكاة.

وفي عام ١٩٢٧، أُسّست في الحجاز أولى دوائر كتاب العدل التي كانت تتولّى تسجيل الوثائق القانونية، باستثناء ما يتعلّق بالأوقاف.

وفي المهمّات التي أُنيطت بالمحاكم الشرعية في شبه الجزيرة خلال فترة العشرينات والثلاثينات محاولة قطع دابر الثأر بفرض ديّة عن دم القتيل وحمل أهله على قبولها. وحدّدت مبالغ معيّنة عن كلّ نوع من التشويه الجسدي.

الواردات والنفقات

في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٥، أصدر ابن سعود مرسوماً يحدّد مقادير الزكاة وطرق جبايتها، وكلّف أمراء المقاطعات بالإشراف على استيفاء الزكاة. وعند تولّي عبد العزيز حكم، كان جباة الزكاة ينقسمون الى فئتين رئيسيّتين، إحداهما تستوفي في المدن والواحات والثانية من البدو. وكان جباة الزكاة عيون الحكومة بين البدو وركائز لهيبة السلطة المركزية، ولكنّهم كانوا يتجاوزون صلاحيّاتهم، وقد اعترف عبد العزيز، ذات مرّة، أنّه لا يحصل إلاّ على ثلث الضرائب.

كما أُلغيت الخوّة في إمارة الرياض، والتي كانت تدفعها القبائل الضعيفة للقويّة. وإثر الإستيلاء على الحجاز، ظهرت ضريبة جديدة تستوفى من الحجّاج وكانت ترفد خزانة الدولة بعوائد كبيرة. وبعد الإستيلاء على المنطقة الشرقية، فرضت رسوم جمركيّة مقدارها ٨٪، وإن كانت رسوم

الدخان وصلت الى ٢٠٪، وفرضت الجزية على الشيعة والمسيحيِّين واليهود في الإحساء.

وقامت الدوائر الرسمية في الدولة بوضع مشاريع للنفقات وقدمتها الى وزارة المالية، ثمَّ أُحيلت المشاريع الى مجلس شورى الدولة، وهو أحالها الى مجلس الوزراء وكانت ضئيلة؛ إذ أنّ باب النفقات بلغ ١٤ مليون ريال (وكان الجنيه الإسترليني أثناءها يعادل ثمانية ريالات تقريباً)، وبلغ باب الواردات المقدار نفسه.

كما كانت الضرائب المستوفاة تذهب الى بيت المال؛ أمّا النفقات، فإنّ للجيش حصّة الأسد منها. كما كانت تدفع مخصّصات لأرامل وأيتام الشهداء وللجرحى والمرضى. ومن بيت المال أيضاً جرى الإنفاق على العلماء والمدارس وتنشئة الجيل والموظفين. وكان في الرياض جيش من الفقراء يعيله الملك، وكان ما يراوح بين الألف والألفين يأكلون في القصر مرتين كلَّ يوم. كما يذكر أنّ عدد الضيوف الدائمين كان لا يقل عن خمسمائة، وأحياناً كان يبلغ عشرة آلاف.

القوّات المسلّحة

يشير مؤلفو كتاب «الجزيرة العربية في عهد ابن سعود» الى أنّ القوّات المسلّحة النجدية كانت تنقسم الى اربعة أصناف: أ ـ أهل العارض، ب ـ الحضر، ج ـ الإخوان، د ـ البدو.

وامتاز من بين «أهل العارض» الحرس الملكي، وهم لا يتركون السلاح أثناء نومهم. ومن أهل العارض أيضاً موظفو الحكومة و«جيش الجهاد الملكي»، والحرس الملكي أيضاً من «جيش الجهاد». وكان في ديوان الملك دائرة خاصة للجهاد مسؤولة عن هؤلاء الجند وسلاحهم ومؤونتهم.

أمّا فئة الحضر، فتضم سكّان الحواضر والمدن النجدية، وهم يشكّلون أثناء المعركة الميسرة والميمنة، في حين أنّ «أهل العارض» يقاتلون في الوسط.

وذكرت صحيفة «أم القرى» أنّ الجيش الذي كان يعتمد عليه الملك عبد العزيز في فجر حياته، هو جيش الجهاد الذي كان مكوّناً من حاضرة أهل نجد، مضافاً إليه جيش «الإخوان» المكوّن من القبائل البدوية والرّحالة التي وضع لها نظام «الهجر».

وظلّ هذا سائداً حتى عام ١٩٣٠، حين راود الملك مجاراة تطوّر التسلّح؛ فأمر بتكوين إدارة للأمور العسكرية، فكان ذلك إيذاناً بغرس النواة للجيش النظامي، وهي فكرة كانت قد راودت ابن سعود منذ مدّة، قبل هذا التاريخ. فبعد استسلام جدّة، عرض على كلّ ضبّاط الجيش الهاشمي الإنتقال الى الخدمة لديه، وعيّن عدداً منهم في شرطة مكّة أوّلاً، واستقدم ضباطاً من سوريا والعراق للعمل في الدائرة العسكرية. وشهدت جدّة عام ١٩٣٠ أوّل استعراض عسكري شاركت في ثلاثة أفواج من المدفعية والرشاشات والمشاة، وهي نواة الجيش النظامي. ووزّع الجيش على شكل كتائب وألوية، وقسّم على خمس مناطق عسكرية وتمّ توحيد الزي وشارات الرتب، وافتتحت في الطائف مدرسة عسكرية. وفي عام ١٩٣٥ أسّست وكالة (وزارة) الدفاع، ومقرّها في الطائف ومديرية الأمور العسكرية. وفي عام ١٩٣٨، أُلغيت المديرية. وفي العام التالي شكّلت «رئاسة الأركان الحربية». وفي عام ١٩٤٦، أُنشئت «وزارة الدفاع».

وكان ابن سعود يدرك أهميّة الطيران العسكري والمدني، لبلده المترامي الأطراف والقليل السكّان. لذلك أرسل عام ١٩٣١ عشرة شبّان سعوديّين إلى إيطاليا لتعلّم الطيران. وبعد عودتهم تمّ شراء عدد من الطائرات. وفي زمن الحرب اشترى ١٤ طائرة أميركية من طراز «داكوتا». وبدأت أولى الرحلات الجوّية داخل السعودية، ثمّ منها الى مصر وسوريا ولبنان. وأنشئت في الطائف مدرسة للطيران واستقلّ عبد العزيز نفسه الطائرة لأوّل مرّة في تشرين الأوّل (اكتوبر) عام ١٩٤٥ بالقرب من الطائف.

وأُنشئت في عهد الملك أربع مدارس كان يتم فيها تعليم الهاتف اللاسلكي في مكّة وجدّة والمدينة والرياض. وتمّ إرسال دفعة من خريجيها لنيل الدراسات العُليا في بريطانيا وبلدان أخرى. وخلال عهد عبد العزيز

أُنشىء في المملكة ستون مركزاً لاسلكيّاً ثابتاً، منها ثلاثة مراكز رئيسيّة في جدّة والرياض والظهران.

ويرى الباحثون أنّ تركيب القوّات المسلّحة في السعودية يقلّل من خطر الإنقلاب العسكري؛ فإلى جانب الجيش النظامي في السعودية، كان يوجد «جيش الجهاد» و«جيش الهجانة» المكوّن من البدو و«الأقحاح» المخلصين للملك.

التعليم والصحافة

رأى عبد العزيز أنّ نظام التعليم في الحجاز راقٍ، نسبة الى وسط الجزيرة، حيث كان الكثيرون يجهلون الكتابة، في حين كانت تصدر صحيفة في الحجاز تدعى صحيفة «الحجاز» باللغتين العربية والتركية، وفي مكّة مطبعة أهلية إضافة الى مدرسة حكومية تدرّس باللغة التركية ومدرستان دينيّتان أهليّتان.

وفي العام ١٩٠٨، افتتحت مدرستان أهليّتان واحدة في جدّة وأُخرى في مكّة. وأُسّست «إدارة المعارف العامة» التي استقدمت المدرّسين من الخارج، وأُسّس في الرياض والمناطق المحاذية ١٢ مدرسة حكومية وأهلية. وفي الثلاثينات أُنشئت مدارس جديدة إضافية في كبريات مدن الحجاز وفي الرياض، ثمّ في حائل وبريدة وعنيزة والقطيف والجبيل. وحتى الخمسينات كان زهاء ٢٢ ساعة من مجموع ٢٨ ساعة دراسية في المدارس الإبتدائية مكرّسة للمواد الدينيّة. وقاوم عبد العزيز رجال الدين حين أدرج مواد مثل الرسم الهندسي واللغة الأجنبية والجغرافيا في المناهج الرسمية.

وأُنشئت في المنطقة الشرقية مدارس شيعيّة شبه علنيّة، أنفقت عليها الطوائف الشيعيّة.

وابتداء من كانون الأوّل (ديسمبر) عام ١٩٢٤، بدأ في مكّة صدور جريدة أسبوعية شبه رسمية هي «ام القرى»، وهي المرجع الأساسي للبلاغات الحكومية الرسمية، كما نشرت الجريدة لفترة قصيرة الإتفاقيّات التي كانت تعقد مع الدول الأجنبية وأخبار الحياة الأدبية. وفي عام ١٩٣٢ صدرت في

مكّة أيضاً جريدة «صوت الحجاز» الأسبوعية التي دامت سبعة أعوام. وحلّت محلّها صحيفة «البلاد السعودية» التي أصبحت عام ١٩٥٣ أوّل جريدة أسبوعية في البلد. وصدرت في المدينة عام ١٩٣٨ جريدة «المدينة المنوّرة». وصدرت مجلات بشكل غير منتظم في مكّة. أمّا بالنسبة لنجد، فإنّ أوّل ما صدر مجلة «اليمامة» الأسبوعية عام ١٩٥٣، وتحديداً في الرياض. ولم يكن للصحافة السعودية تأثير يذكر على تكوين الرأي العام وتطوّر الأحداث.

وفي عام ١٩٥٠، كان هناك زهاء ٥٠ مدرسة قرويّة (ألفا طالب) في السعودية، و٩٠ مدرسة ابتدائية (١٣ ألفاً)، وعشر مدارس ثانوية (٦٠٠ طالب)، وبلغ العدد الإجمالي للطلاّب زهاء ١٦ ألفاً.

الفصل الثامن عشر

النفط

كان الحج المصدر الرئيسي لعائدات المملكة العربية السعودية، ولا سيّما منذ قيامها في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢، ولم يكن يدرّ عليها الكثير سنوياً، إذ تقلّص عدد الحجّاج بسبب الأزمة الإقتصادية العالمية. وقد أنشأت الحكومة محطّات الإذاعة وحسّنت إسالة المياه في جدّة واشترت سيّارات، فبلغ إجمالي ديونها ـ ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ألف جنيه استرليني، فتوقّفت عن تسديد ديونها ولم تتمكّن من الحصول على قروض جديدة.

في هذا الأثناء، اكتشف الخبير الجيولوجي مستر توتشيل ترسّبات نفطيّة في الظهران، فعاد الى الولايات المتحدة ليخبر شركات البترول. وكانت شركة «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» (سوكال) من شركات البترول الأميركية التي راحت بعد الحرب العالمية الأولى تفتّش عن طريقة لاستخراج النفط خارج الولايات المتحدة.

وفي حزيران (يونيو) ١٩٣٢، تمّ اكتشاف النفط في البحرين، وأشارت الدلائل الى وجود نفط في الجزيرة العربية المجاورة. وكان عبد العزيز في ذلك الوقت يبحث عن تأمين موارد جديدة لدولته المتنامية. وفي الوقت عينه، قرّرت «سوكال» الاتصال بالملك السعودي. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢، منح امتياز لفرع «سوكال» يحمل اسم «كاليفورنيا ـ أريبيان ستاندارد أويل كومباني»، وعُدّل الإسم في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ الى «أراب أميركان أويل كومباني» (أرامكو). وكان الخبير الجيولوجي الأميركي المستر توتشل قد أكد للأمير عبد العزيز وجود النفط في الإحساء والذهب في الحجاز. ومقابل التنقيب عن النفط منحت الحكومة السعودية سلفة مقدارها خمسون ألف جنيه ذهبي، تلاها قرض مقداره خمسون ألف جنيه ذهبي، مع

اكتشاف «الذهب الأسود» بكمّيات تجارية، والذي بلغت عائداته سنة ١٩٦٣ ما يزيد على ٩٨٤ مليون دولار.

وبعد خمس سنوات من الحفر والتنقيب، ثبت للشركة أنّ المنطقة التي حدّدها لها امتيازها تشتمل على واحد من أكبر الأحواض النفطية في العالم. وكانت الشركة صاحبة الإمتياز قد تنازلت، قبل إعلانها العثور على البترول بكميّات تجارية بسنتين إثنتين، عن جانب من حقوقها في التنقيب لشركة «تكساس أويل» الأميركية. ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية حرمت السعودية من استثمار نفطها استثماراً كبيراً. وبتدفّق النفط فوق رمال الجزيرة، تدفّقت الأموال على الخزينة السعودية، وراحت ترتفع ما بين أعوام ١٩٤٤ و١٩٦٣ حيث بلغت ذروة ارتفاعها.

مكامن الذهب

بعد مضي فترة وجيزة على امتياز النفط، حصلت المجموعة الأنكلو-أميركية على امتياز لاستثمار مكامن الذهب. وبدأ استخراج المعدن الثمين في مهد الذهب. ولكن احتياطاته نفذت عام ١٩٥٣. لقد كان في جبال الحجاز الكثير من الذهب، إنّما يبدو أنّ كميّات كبيرة منه قد استخرجت في زمن سليمان الحكيم وإبان حكم الخلفاء العبّاسيّين، ولم يعد استثمار مناجم الذهب مُربحاً بعد فترة من بدئه.

غير أنّ استخراج النفط في العربية السعودية ازداد من سنة ١٩٣٨ حتى ١٩٨٦، بملايين البراميل. ومنذ أواخر الثلاثينات، يمكن القول إنّ المملكة العربية السعودية دشّنت عصراً جديداً هو عصر النفط على الرغم من أنّ البلد لم يتحسّس تأثيره بشكل ملموس إلاّ في أواخر الأربعينات.

واكتشاف النفط ساعد عبد العزيز بن سعود على الإرتفاع بالبلاد السعودية من مستوى المجتمعات القبلية الى مستوى الدول النامية. ومع ابتداء الحرب العالمية الثانية، أعلن باسم مملكته سياسة الحياد، وكان واضحاً أنّ حياده موالٍ لبريطانيا، إذ أنّ المملكة العربية السعودية في ذلك الحين كانت تتاجر مع الهند البريطانية، والحجّاج في غالبيتهم كانوا من بلدان إسلامية

تابعة لبريطانيا، إضافة الى ارتباط النقد السعودي آنذاك بالجنيه الإسترليني.

صحيح أنّه لم تقع معارك في الأراضي العربية السعودية، إلاّ أنّ اقتصاد البلد أصبح مثقلاً بأعباء الحرب، بسبب استنفار القوّات وتغيّب الرجال عن القيام بأعمال الزراعة، فقضي على المحاصيل تقريباً، وأُصيبت الميزانية بعجز، وتضاءل عدد الحجّاج عشيّة الحرب من ٥٠ و١٠٠ ألف الى ٢٠ و٣٠ ألفاً. وتوقّف استخراج النفط في بداية الحرب.

كما أبقت بريطانيا السعودية مرتبطة بها بتبعية مالية، وذلك بتزويدها بالسلع والعملات الذهبية والفضية للتداول. وفي الوقت نفسه، قيّدت تسويق نفط السعودية لجيوش الحلفاء وأحكمت سيطرتها على صادرات الأغذية إليها.

أميركا ونفوذ بريطانيا في السعودية

إزاء تزايد هذا النفوذ البريطاني في السعودية قلقت شركات النفط الأميركية، ووضعت أميركا أهدافها للحلول محل بريطانيا في المنطقة للإمساك بالإحتياطات النفطية؛ فدور النفط تغيّر في العالم وتحوّل من سلعة تجارية في الأساس الى سلعة استراتيجية ذات أهميّة من الدرجة الأولى. وفي ٨ شباط (فبراير) ١٩٤٣، أرسل وزير الداخلية الأميركية هارولد إيكيس مذكرة من «ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا» يبدي قلقه فيها إزاء التنامي السريع لنفوذ بريطانيا في السعودية، لأنّ ذلك قد يؤثّر سلباً على نشاط الأميركيّين بعد الحرب.

وفي ١٨ شباط (فبراير) ١٩٤٣، وبعد عشرة أيام على تاريخ المذكرة، أوعز روزفلت الى نائب وزير الخارجية ستينيوس، المسؤول آنذاك عن برنامج الإعارة والتأجير، «بتنظيم مساعدة للحكومة السعودية وفق برنامج الإعارة والتأجير»، مؤكّداً له أهمية الدفاع عن السعودية وانعكاساته في مسألة الدفاع عن الولايات المتحدة، وقُدّرت المساعدة فيما بعد بقيمة تسعة وتسعين مليون دولار.

ومع حلول عام ١٩٤٣، بدأ استخراجُ النفط يتزايد مجدّداً بعد انخفاض

بسبب القيود البريطانية وإغلاق أسواق أوروبا الغربية. وأسهم في الزيادة تزايد الطلب على النفط من قبل جيوش الحلفاء في المحيط الهادىء والبحر الأبيض المتوسط، حيث كانت تدور المعارك، إضافة الى توقّف صادرات النفط من بورما وأندونيسيا بعد استيلاء اليابان عليهما.

وعيّنت الولايات المتحدة الأميركية في جدّة قائماً بالأعمال، في آذار (مارس) ١٩٤٢، بعدما كان السفير الأميركي في القاهرة معتمداً في السعودية إضافة لوظيفته.

وأرسل روزفلت الى السعودية في ربيع ١٩٤٣ الجنرال هارلي مندوباً عنه لاستيضاح مواقع شركات النفط الأميركية فيها. ثمّ زار ولي العهد الأمير سعود أميركا، ففيصل وأخوه خالد اللذان قابلا روزفلت وأعضاء الإدارة ومجلس الشيوخ الأميركي.

وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٤٣، زار الجنرال رويس العربية السعودية، وكان القائد العام للقوّات المسلحة الأميركية في الشرق الأوسط، واتفق على بناء مطارات حربية في الظهران والدوكة. وأرسلت الى السعودية بعثة أميركية عسكرية لتدريب الجيش السعودي الى جانب مجموعة المدرّبين البريطانيّين الذين استدعاهم ابن سعود.

لقاء روزفلت وعبد العزيز

شدّد روزفلت على لقاء الملك عبد العزيز ممّا دلّ على أهميّة موقع السعودية في السياسة في الشرق الأوسط. ولقاء الرئيس روزفلت مع ابن سعود كان في قناة السويس، وقد ذهب الأمير السعودي برفقة حاشيته على متن البارجة الأميركية «مورفي» وكان الرئيس الأميركي في انتظاره على متن الطرّاد الأميركي كوينسي في البحيرات المرّة. كان ذلك في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٤٣. وحاول روزفلت نيل موافقة الملك على مشروع إسكان اليهود في فلسطين فأخفق... وأكد ابن سعود على أنّ السفن الأميركية والبريطانية، على حدّ سواء، حرّة في استخدام الموانىء السعودية على الخليج، ووافق على إنشاء قاعدة جويّة ضخمة، محذّراً من محاولة احتلال

السعودية، كما كانت الحال في مصر وسوريا والعراق وإيران. . . كما تعهّد بإعلان الحرب على دول «المحور» مقابل حصوله على جزءٍ من السلاح الخفيف المخبّأ في إيران. وطلب ابن سعود من روزفلت الإعتراف باستقلال مملكته، وبهذا حاول حفظ استقلاله من نوايا بريطانيا. ووافق ابن سعود على بناء خط لأنابيب النفط عبر الجزيرة العربية يربط منطقة الإحساء بسواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي آذار (مارس) ١٩٤٥، أعلنت السعودية الحرب على دول «المحور»، ممّا أتاح لها إمكانية الإنضمام الى هيئة الأمم المتحدة.

إكتشاف حقول نفط جديدة

مع بزوغ عام ١٩٤٦، كانت «أرامكو» قد اكتشفت أربعة حقول ضخمة للنفط في الدمام وأبو حدرفة والقطيف وبقيق. وتبع ذلك اكتشاف حقول أخرى في السفانية. كما افترض الخبراء وجود مستودعات جديدة من الوقود السائل في الطبقات الجيولوجية الفريدة في العربية السعودية.

وبعد نهاية الحرب انتقلت صناعة تكرير النفط شيئاً فشيئاً الى مراكز الإستهلاك. وفي ٥ تموز (يوليو) عام ١٩٤٥، أسّس المساهمون في «أرامكو» شركة التابلاين «شركة خط أنابيب نفط العربية السعودية»، وأنجز المشروع عام ١٩٥٠. وتطوّرت الصناعة النفطية سريعاً في العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية، وقرّرت شركتا «سوكال» و«تكسكو» التعاون «ستاندارد أويل أوف نيوجرسي» و«موبيل أويل» لمدّ خط الأنابيب وتوفير أسواق لكميّة ضخمة من النفط. وانضمّت الشركتان الأميركيتان الى «أرامكو» متجاهلتين معارضة «شركة النفط العراقية البريطانية» و«رويال راتش شيل». وصارت أسهم أرامكو موزّعة على الشكل الآتي: «سوكال» ٣٠٪، «تكسكو» ٣٠٪، «ستاندارد أويل أوف نيوجرسي» ٣٠٪، و«موبيل أويل» ١٠٪. وفي عام ١٩٤٨، تخلّت «أرامكو» عن حقوق الإمتياز في المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية، شرط الحصول على الجرف القارّي في الإحساء.

الفصل التاسع عشر

السعودية
في
مطلع الخمسينات

أواخر أيّام عبد العزيز

قام الملك عبد العزيز بتحديث الدولة؛ ففي أواخر أيّامه في تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٩٥٣، أصدر بن سعود مرسوماً حول إعادة تنظيم مجلس الوزراء الذي كانت قد أصبحت وظائفه في حينها تشمل البلاد كلّها، شكليّاً وفعليّاً، وليس الحجاز فقط. وكان عبد العزيز قويّاً وشجاعاً في شبابه وكهولته، لكنّه كان يعاني من آلام مبرحة في ساقه بسبب جرح، وراحت هذه الآلام تتزايد مع تقدّمه في العمر، حتى أنّه لم يعد في وسعه ثني ركبته ولا أن يخلد للنوم إلاّ بعد تدليك ركبته ساعة أو أكثر؛ وقد أهداه الرئيس الأميركي روزفلت كرسيّاً متحرّكاً هو نسخة طبق الأصل عن كرسيه، وأُعجب ابن سعود بالكرسي وظلّ يجلس عليه طوال الوقت ليرتاح، ويبدو أنّ ذلك عجّل في وفاته لأنّه لم يعد يتحرّك فترهّل، وتوفّي في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣ في الطائف؛ وأقسم زهاء مائة أمير اجتمعوا عند جثمانه يمين الولاء لسعود الذي بايعوه ملكاً ولفيصل كوليّ للعهد. ونُقل جثمان بن سعود جوّاً الى الرّياض حيث دفن وفق التقاليد الوهابية المعتادة دون شاهد أو تابوت أو ضريح، ويصعب تمييز مقبرته عن سواها، وهي تقع الى جوار مقابر سائر أفراد العائلة ومنهم أحب أخواته نورا. وبذا ظلّ الوهابيّون الذين هدموا القباب وشواهد القبور أوفياء لأنفسهم.

وفي التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، أكّد العاهل الجديد سعود تعيين شقيقه فيصل نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للخارجية، واحتفظ لنفسه برئاسة الحكومة. وسعود ولي العهد الجديد هو الإبن الثاني لعبد العزيز بعد تركي الذي توفّي شاباً بسبب إصابته بالأنفلونزا وأم سعود من آل عريعر

الأرستقراطيِّين، وهم شيوخ بنو خالد، وقد وتوفِّيت بعد وفاة ابنها. أمّا فيصل فهو من الزوجة الثالثة لعبد العزيز وهي من آل الشيخ. وقد كان التنافس مستمرّاً بين الشقيقين الى ما بعد وفاة والدهما، على الرُّغم من اليمين الذي أقسماه له.

وفي آذار (مارس) ١٩٥٤ أدلى سعود في أوّل اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسي الأوّل بصفته ملكه، وأعلن عن تمسّكه بأهداب الدين وعزمه على مواصلة سياسة والده وأساليب حكمه؛ من أوّل أهدافه تثبيت أصول الدين والشرع. ومن مهمّات حكومته تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض وتحسين الخدمات الطبيّة وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات. وكان الملك يتدخّل في أعمال أخيه ويقيّد سلطته، الى أن بلغ الصراع الخفي حدّه في أواخر الخمسينات حتى راح الناس يتحدّثون عن «ازدواجية السلطة» في المملكة.

وفي خطاب العرش الذي ألقاه الملك سعود في آذار (مارس) ١٩٥٤، أعلن أنّه مع التعاون مع البلدان العربية في إطار الجامعة العربية، وطبقاً لميثاقها ومعاهدة الدفاع المشترك التي أُبرمت في ٢١ نيسان (أبريل) ١٩٥٦ في مدينة جدّة بين سعود وعبد الناصر الرئيس المصري وشكري القوتلي الرئيس السوري وإمام اليمن أحمد. وأطلق الملك سعود في خطابه دعوة الى تعزيز العلاقات مع البلدان الإسلاميّة ووعد بمواصلة اتباع سياسة مناوئة لإسرائيل.

وتحالف سعود مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، ويعزى هذا التحالف الى أنّ السياسة المصريّة كانت موجّهة ضد البريطانيِّين وتحجم عن معاداة الولايات المتحدة بشكل فعّال. وذلك كان مُتّفقاً مع النهج السياسي للرياض. وأثناء حرب السويس عام ١٩٥٦، أيّدت الرياض القاهرة ووقفت الى جانبها تستعد لمساعدتها عسكريّاً، وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا. وأوقفت عمليّاً ضخّ النفط الى هذين البلدين، ممّا أنزل ضربة في خزينة الدولة. وأعانت السعوديّة مصر بمبالغ كبيرة من المال. لكن فيما بعد راحت تخشى من الدّعاية الإذاعيّة المصرية التي كانت تؤثّر في

السعوديّة والتي كانت ميولها مناوئة للملكية. وأقلقت الملك شعبيّة الرئيس عبد الناصر التي امتدّت الى العربية السعودية وكادت تسقط النظام فيها، في أيار (مايو) ١٩٥٥. وكانْ قد أعدّ لذلك ضبّاط سبق لهم أن دُرِّبوا في مصر، وشاركهم في المؤامرة عدد من المستشارين العسكريِّين المصريِّين.

وانفرط العقد بين مصر والسعودية بعدما عمّت عدداً من البلدان العربية نشاطات مناوئة لـ«مبدأ ايزنهاور»، واجتمع سعود في مصر بالرئيسين المصري والسوري وملك الأدرن، وتقرّر في بيان مشترك اعتبار مبدأ ايزنهاور برنامجاً لاستعباد الشعوب المستقلّة مؤخّراً، ورفض المجتمعون نظريّة «ملء الفراغ» الأميركية، وبالتالي أن تكون بلدانهم ميداناً لنفوذ أي دولة أجنبيّة؛ ولكنّ سعود اتفق في الولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧، أثناء مفاوضات رسميّة على تزويد السعودية بمعدّات للقوّات الجويّة والبريّة والبحرية وتدريب طيّاريها، وتوفير الفنّيين لقواتها المسلحة ومنحها قرضاً قيمته ٢٥ مليون دولار، وأفرطت واشنطن في تأييد العربية السعوديّة، وأملت عليها لتنفيذ سياستها في الشرق الأوسط نظراً لارتباط المملكة اقتصاريّاً بالولايات المتحدة ولما تتمتّع به السعودية من نفوذ في العالم الإسلامي. والتقى سعود في الولايات المتحدة بوساطة أميركية ولي العهد العراقي عبد الإله.

الفصل العشرون

صراع
سعود وفيصل
على السلطة

في شباط (فبراير) ١٩٥٨، انبثقت الجمهورية العربية المتحدة التي كانت تضم مصر وسوريا. وعلى الأثر اتهم الملك سعود علناً بالتآمر لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر، وذكر ذلك عبد الحميد السراج المدير السابق للمباحث السورية، وأضاف أنّه قد عرض عليه مبلغ مليون جنيه استرليني مقابل إرسال طائرة مقاتلة سورية، لإسقاط طائرة كان على متنها عبد الناصر. ونشرت الصحف صوراً لثلاثة صكوك محوّلة من الرياض الى بنك في بيروت، وقيمتها مليونا جنيه استرليني. ولأنّ شعبيّة الرئيس عبد الناصر كانت قويّة وامتدّت الى أنحاء الجزيرة العربية كلّها، ولا سيّما السعودية، فإنّ ذلك النبأ أثار القلاقل والبلبلة في السعودية. وأثّر في مكانة الأمير سعود... وزاد من استياء الناس. وظهر ذلك جليّاً في رسالة ناصر السعيد الى الملك سعود في عام ١٩٥٨، وهو أحد الزعماء العمّاليّين في المنطقة الشرقية وقائداً لاتحاد شعب الجزيرة في ما بعد.. وكان قد أورد في الرسالة مطالب العمّال الإقتصاديّة داعياً الى منح حرّيات ديموقراطيّة واسعة، بينها حرّية التظاهر والإضراب والصحافة والمُعتقد وإطلاق سراح المعتقلين السياسيّين، والإعتراف بحقوق الشيعة وإلغاء جماعة الأمر بالمعروف. وطالب أيضاً بوقف نشاط الهيئات الخاصة الأميركية والمراكز الدعائية لأرامكو.

وتفادياً لما هو أسوأ، أخذ جزء كبير من آل سعود وكبار العلماء يفكّرون في ضرورة إجراء انقلاب في القصر ليتسلّم ولي العهد فيصل السلطة الفعليّة. فتحصّن سعود في قصر «الناصريّة» في الرياض، ومن حوله الحرس الوطني والحرّاس الشخصيّون. فيما كان فيصل يتفاوض مع شيوخ البدو في البادية، وفيصل طالب بمنحه السلطة الكاملة كرئيس للحكومة وبعدم تدخّل الملك في شؤون حكومته. فرفض الملك سعود؛ إلاّ أنّ مجموعة الأمراء

وعلى رأسهم فهد بن عبد العزيز تقدمت في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٥٨، بإنذار الى الملك تطالب فيه بتسليم السلطة الفعليّة الى فيصل وبتنحيته مستشاري الملك سعود الذين شاركوا في التدبير الفاشل لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر. وفي ٢٣ آذار (مارس) ١٩٥٨، صدر مرسوم ملكي يمنح رئيسي الوزراء فيصل «المسؤولية التامة للإشراف على تنفيذ السلطات الإدارية، فيما يتعلّق بالداخلية والخارجية والماليّة»، وإعلانه أيضاً قائداً عاماً للقوّات المسلّحة السعودية. وفي ١٨ نيسان (أبريل) ألقى فيصل خطاباً عبر الإذاعة السعودية كرّسه للسياسة الخارجية، وركّز فيه على رغبته في علاقات صداقة مع أيِّ دولة لا تعادي الحكومة السعوديّة وتؤمن بالحياد الإيجابي ولا تنتمي لأيِّ كتلة عسكريّة.

برامج فيصل

في ١١ أيار (مايو) ١٩٥٨، أدخل المرسوم الملكي على النظام، وفصل بين صلاحيّات المجلس وصلاحيّات الملك، ومنح مجلس الوزراء السلطة الإدارية في حين ظلّت السلطة السياسيّة بيد الملك. وطرح المرسوم كذلك مهمة تنظيم المالية ومكافحة الرشوة والفساد. ومنع المرسوم عينه أيَّ عضو في مجلس الوزراء من تولّي وظيفة جديدة في الحكومة أو خارجها من دون موافقة رئيس الوزارة.

وانتمت السعودية الى صندوق النقد الدولي عام ١٩٥٧. وأقرّ فيصل في حزيران (يونيو) ١٩٥٨، برنامجاً للإستقرار المالي، وخفض نفقات الدولة الى مستوى وارداتها، وأجرى إصلاح النظام النقدي، وأوقف البناء في بعض القصور الملكية ومنع استيراد السيّارات لمدة سنة، وخفض من قيمة الإنفاق على التنمية الإقتصادية والتعليم والصحة. وفي عام ١٩٥٩ توقفت الدولة عن تخصيص أموال للزراعة والطبابة.

واعتمدت الحكومة برئاسة فيصل النقود الورقية المغطّاة بالذهب والعملة الأجنبية القابلة للتحويل، لتعوّض بها عن «وصولات الحجّاج» والنقود التي سحبت تدريجيّا من التداول. وقُسّم الرّيال الجديد الى ٢٠ فلساً بدلاً من ٢٢.

وفي مطلع عام ١٩٦٠ كان احتياطي الذهب والعملة الصعبة قد ازداد عدّة أضعاف، غير أنّ سياسة التقشّف ساهمت في الفتور التجاري والبطالة وخسارة لدى الطبقة البورجوازية الصغيرة والمتوسطة والمقاولين.

ولم يتنازل سعود إطلاقاً على الرغم من كل شيء عن العرش، ولم يسلّم السلطة الفعليّة لولي العهد، بل احتفظ بعلاقاته المميّزة والودّية مع الارستقراطية العشائرية ومع بعض علماء الدين، وزار مصر في صيف ١٩٥٩ ليرفع عنه الشبهة في عدائه لعبد الناصر، وبقي سنة كاملة ينتقل في أرجاء البلد طيلة عام ١٩٦٠، ويتغيّب في كثير من الأحيان عن العاصمة الرياض ويدفع كذلك ديون الفقراء... وكان يغسل الكعبة عشيّة موسم الحج ويتبرّع لتمويل المساجد داخل السعودية وخارجها... وراح يقيم علاقات مع الأمراء السعوديّين الشبان المتأثّرين بالأفكار الناصريّة، وكان يعدهم بالمؤازرة.

مرض فيصل

في أيار (مايو) ١٩٦٠، كان فيصل قد مرض، فقرّر السفر للعلاج في أوروبا، وعيّن فهد بن عبد العزيز وكيلاً له، لكن الملك رفض المصادقة على هذا التعيين؛ ولكن قبل السفر الفعلي في ١٨ كانون الأوّل (ديسمبر) قدّم فيصل للملك مسودّة مرسوم ملكي حول الميزانية، فلم يوقّعه الملك، فاْحتجّ فيصل في رسالة اعتبرها الملك سعود طلب استقالة. وتولّى رئاسة الحكومة وعيّن وزراء جدداً. بينهم الأميران طلال بن عبد العزيز ومحمد بن سعود اللذان أُسندت لهما وزارتا المالية والدفاع.

كان الصراع دوماً السمة الرئيسة داخل الأسرة المالكة وفي الحياة السياسية في البلد... وتنامت المعارضة، وصدر إيعاز لحماية النظام الملكي يهدّد بعقوبة الإعدام كل من يحاول تغيير النظام الملكي، أو يتطاول على الدولة، أو يسعى لشق القوّات المسلّحة. فركّزت مجموعة فيصل هجومها على طلال متجنّبة المساس بهيبة الملك. ومناصرو فيصل أخافوا الملك من التجديد وحذّروه من الوزراء الجدد.

وبدأ هجوم رجال الدين بالتحالف مع الأمراء المحافظين من آل سعود

وكبار الموظّفين على حكومة فيصل، وطالبوا بالإطلاع على القوانين إذا ما كانت مطابقة لأحكام الشرع أم لا. وطالبت بإعطاء العامل الذي يصاب بعاهة تعويضاً عن يوم واحد فقط، اليوم الذي أُصيب فيه، لأنّ هذا الأمر حدث قضاء وقدراً، ودعوا الى إغلاق استديوهات التصوير في الرياض. وخوفاً من إسقاط هيبتها أمرت الحكومة برفع اليافطات عن الإستوديوهات وأزالت واجهاتها الزجاجية.

وألّبت جماعة فيصل الأوساط التجاريّة ضد طلال وسائر الأمراء، وروّجت إشاعات تقول إنّ طلال ينوي تأميم المؤسّسات الصناعية والشركات التجارية. . . وقاوم الملك سعود شقيقه طلال في قضيّة تنظيم المالية ويقول طلال إنّ شقيقه الأكبر الملك سعود شارك في المضاربة بالأراضي ممّا أضرَّ بماليّة الدولة. كما أنّ سعود رفض اقتراحه تأميم شركة الكهرباء الأهلية في الرّياض للحصول على واردات إضافية. وأقال سعود طلال في ١١ أيلول (سبتمبر) وبدر عبد المحسن حليفه. وفي ١٦ من الشهر نفسه عيّن نوّاف بن عبد العزيز وزيراً للمالية والإقتصاد الوطني والمناصب المتبقّية أسندها الى أبناء سعود.

مرض الملك سعود

في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر)، نُقل الملك سعود فاقد الوعي الى المستشفى الأميركي في قاعدة الظهران، ثمّ اضطر للسفر الى الولايات المتحدة للعلاج. وألحّ كبار أفراد العائلة المالكة على سعود قبيل مغادرته البلاد تعيين فيصل، فعيّنه وصيّاً في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر)، ثمّ رئيساً رسميّاً للحكومة في آذار (مارس) ١٩٦٢، لأنّ سعود اضطرّ للبقاء سنة في الولايات المتحدة الأميركية لإجراء سلسلة عمليّات جراحيّة. أمّا طلال فلم يجد له داعماً داخل البلاد، فهاجر مع جماعته في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٦٢، الى بيروت وعقد فيها مؤتمراً صحافيّاً، وانتقد في صحيفة «الأنوار» النظام السعودي مع أنّه لم يتطرّق لاسم الملك، وقال إنّه يهدف مع مجموعته الى إقامة ديموقراطية دستورية في الإطار الملكي. وأيّده في ذلك أربعة أمراء هم: عبد المحسن بن عبد العزيز، وبدر بن عبد العزيز، وفوّاز بن عبد العزيز وسعد بن فهد.

فيصل ملكاً على السعودية

أعلنت حكومة فيصل الأحكام العرفية في الأوّل من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، ونكّلت بالمعارضة واعتقلت الشخصيّات الذين أرادوا الإصلاحات. وعاد سعود الى الرياض في ٢٧ نيسان (أبريل)، لكنّه وجد نفسه في عزلة خاصة أنّ إخوته طالبوه بتسليم فيصل السلطة الفعليّة. فغادر سعود البلاد وعزل فيصل أبناءه من المناصب الحكومية المهمة وعيّن مكانهم إخوته الثلاثة، خالد وفهد وسلطان وعمّه الأمير مساعد بن عبد الرحمن. وصادق مجلس الوزراء في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) على قرار فتوى العلماء بمبايعة فيصل ملكاً وقعها جميع أفراد الأسرة المالكة، كما بايع الملك الجديد أعضاء مجلس الشورى وممّثلو أهم المحافظات. وفي ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) أقسم الحرس الوطني يمين الولاء لفيصل.

عودة العلاقات السعوديّة ـ البريطانية

قام الملك فيصل بزيارة لبريطانيا في أيّار (مايو) ١٩٦٧، بعد المعاهدة التي وقعت في كانون الأوّل (ديسمبر) من عام ١٩٦٥ بين الولايات المتحدة وبريطانيا من جهة، والسعودية من جهة أخرى، والتي تلتزم بموجبها بريطانيا بتصدير طائرات نفّاثة وأجهزة رادار ومعدّات عسكرية الى المملكة وغيرها. غير أنّ الوفاق البريطاني الأميركي في مجال تصدير الأسلحة لم يستمر طويلاً، إذ أنّه في السبعينات صارت سوق السلاح السعوديّة مسرح تنافس بين احتكارات الصناعة الحربية الأميركية والبريطانية.

الفصل الحادي والعشرون

العلاقات
العربية - السعودية

في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١، انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، واعترفت الحكومة السعودية فوراً بالحكومة السورية الجديدة. وفي أواخر ١٩٦١، إستعرت مجدّداً الحرب الإعلامية بين إذاعتي القاهرة ومكّة، وأنتقدت القاهرة استبداد «النظام الإقطاعي» في السعودية؛ وأتهمت مكّة عبد الناصر بخيانته القضيّة الفلسطينية والتساهل إزاء إسرائيل. وتأزّمت العلاقات الى درجة رفضت الحكومة السعودية قبول كسوة الكعبة من مسلمي مصر في عام ١٩٦٢.

وفي الوقت نفسه، جرى تقارب بين النظام السعودي والأردن، إذ أجتمع في ٣٠ آب (أغسطس) الحسين وسعود في الطائف، ووقّعا اتفاقية حول السياسة الخارجية والعلاقات الإقتصادية والعسكرية والثقافية وعلى رسم الحدود. وعُرِفت هذه بأتفاقية الطائف.

الثورة اليمنيّة

في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢، تولّى ولي عهد اليمن، الأمير محمد البدر، الحكم بعد وفاة والده أحمد. وبعد سبعة أيّام، قامت مجموعة من الضبّاط المناوئين للحكم الملكي بالإطاحة ببدر والاستيلاء على الحكم. وغدت هذه الثورة تحذيراً خطيراً للعائلة المالكة الحاكمة في السعوديّة، إذ ظهرت في البلاد في أوساط الضبّاط والموظّفين والتجّار وذوي المهن الحرّة والعمّال والطلبة فئة «وسطى» نشيطة اعتنقت أفكار التحرّر الوطني والإجتماعي بصيغها ـ الماركسيّة والناصرية والبعثية، وراحت تطالب بالتغيير. والتجأ الإمام البدر الى السعودية، وتجمّع في المناطق المحاذية لليمن مع كبار أنصار النظام الملكي، وزوّدت الحكومة السعودية هؤلاء الملكيِّين بالمال والسلاح، وأغدقت الأموال على القبائل المناوئة للجمهورية.

وفي ٥ تشرين الأوّل (اكتوبر) سمحت السعودية للملكيِّين بتشكيل حكومة منفى في جدّة. وفي ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) تحدث نائب رئيس الجمهورية اليمنية عبد الرحمن البيضاني عن «حالة حرب» مع السعودية. وانقسم أعضاء المجتمع السعودي بفئاته العُليا، ولا سيّما الحكومة، بين مؤيّد للنظام الجديد في صنعاء ومعارض له. فعاد فيصل في ٢٤ تشرين الأوّل (أكتوبر) من نيويورك حيث ترأس الوفد السعودي الى الأمم المتحدة معتبراً أنّ الوزراء غير الأرستقراطيّين في حكومته كانوا انهزاميِّين يتخوّفون نظراً لضعف إيمانهم بمستقبل السعودية ويظنّون أنّ عبد الناصر سيتمكّن من استثمار الثورة اليمنيّة وبالتالي التهديد العسكري لهدم بنية النظام الملكي... فرصّت العائلة الحاكمة السعودية صفوفها.

أدّت العمليّات الحربية طويلة الأمد في اليمن الى خلق صعوبات كبيرة، ليس للجمهورية اليمنيّة فحسب، بل لمصر والسعودية أيضاً؛ فقد حدث انفجار ثوري في السعودية، وضعفت مواقف مصر في الجمهورية العربية اليمنية، وأخذ يتزايد في المعسكر الجمهوري نفوذ الجناح المحافظ ذي الميول المناوئة لمصر، ولم تحدث تعقيدات في الوضع الداخلي السعودي. وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٥، لم تكن المفاوضات السعودية المصريّة قد أسفرت بعد عن نتائج، وأثيرت في اليمن مسؤولية الأراضي التي صارت جزءاً من السعودية مثل عسير (منطقة مدينة جيزان) ونجران. فسعت الصحافة المصرية إلى تأكيد ملكية هذه الأراضي العائدة لليمن. وانعقد لقاء في جدّة في ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٦٥ بين عبد الناصر والملك فيصل تمّ فيه الإتفاق على عزل الرئيس اليمني عبدالله السلال والإمام البدر عن الحياة السياسية لفترة طويلة.

عبد الناصر يتضايق من بيع الأسلحة للسعودية

مع نهاية عام ١٩٦٥، بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا ببيع السعودية كميّات كبيرة من الأسلحة والطائرات النفاثة، فاعتبر عبد الناصر أنّ هذا الأمر معادٍ لمصر.

وخرقت الهدنة في أوائل آذار (مارس) ١٩٦٦ التي اُتفق عليها في جدّة، إذ عاود الملكيّون العمليّات الحربية؛ وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٦٦، أعلن عبد الناصر عن نيّته في إبقاء القوّات المصرية في اليمن حتى يتعزّز الجيش الجمهوري، وقال إنّه سيحتل القواعد في نجران وجيزان إذا استأنفت السعودية من هذه المراكز العمليّات العدوانية ضد الجمهورية العربية اليمنية.

وازدادت العلاقات السعودية المصرية توتّراً. وفي ٩ شباط (فبراير) ١٩٦٧، أغلقت الحكومة السعودية فروع «بنك القاهرة» و«بنك مصر» في جدّة، كما أصدرت الحكومة المصرية بدورها مرسوماً يقضي بمصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة للملك فيصل وأفراد الأسرة الحاكمة في مصر. ووضع اليد على أموال ٤٠ شركة سعودية و٣١ من رعايا السعودية.

نكسة حزيران وتأثيرها على العلاقات المصرية ـ السعودية

وقعت نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وهزمت مصر وبدأت من ١٢ حزيران (يونيو) سحب قوّاتها المسلّحة من اليمن. . . وناصب العرب العداء لإسرائيل فاضطرّت السعودية الى التضامن مع مصر لأنّها ضحيّة للعدوان الإسرائيلي. كذلك، وقّع عبد الناصر وفيصل في مؤتمر الخرطوم في ٣١ آب (أغسطس) ١٩٦٧ على التسوية السلميّة، وتعهّدت الكويت والسعودية وليبيا بتقديم المساعدة المادية لمصر والأردن المتضرّرتين من الحرب، ومقدارها (١٣٥ مليون جنيه استرليني)، خصّص ٩٥ مليوناً لمصر و٤٠ مليوناً للأردن. غير أنّ السعودية اشترطت انسحاب القوّات المصرية من اليمن، فتمّ ذلك ما بين ١٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٧ و٩ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٧. لكن السعودية بقيت تقدّم العون للملكيّين.

وظلّ النفوذ السعودي هو السائد في الجمهورية اليمنيّة خلال السبعينات، وأدّى التقارب بين السعودية واليمن الى تحسّن علاقات اليمن الشمالي بالولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وألمانيا الغربية والى إضعاف الروابط مع الإتحاد السوفياتي. في حين لم تعارض بريطانيا توطيد النفوذ السعودي في مستعمراتها السابقة، ورأت الأوساط البريطانية الحاكمة في

النظام الملكي السعودي خير حليف لها في شبه الجزيرة.

تقارب السعودية وإيران

نشطت الدبلوماسيّة السعودية بوتيرة متصاعدة في بلدان حوض الخليج ما بين فترة الستّينات ومطلع السبعينات، وبخاصة في إمارات الجزيرة. وكان لذلك أسباب عدّة: تعاظم دور إيران الشاهنشاهية وجبروتها ونفوذها، وكانت السياسة السعودية إزاءها تقوم على الجمع المعقّد بين التعاون والتنافس. ويقول السفير الأميركي السابق في السعودية ساليفان: «إنّ السعودية كانت تعتبر بشكل غير مباشر أنّ كلّ الدول المتاخمة لها باستثناء العراق، هي ضمن دائرة نفوذها.

وجرى في أواسط الستّينات تقارب بين السعودية وإيران. وفي عام ١٩٦٥، طرح فيصل فكرة «الحلف الإسلامي» فأيّدها شاه إيران. وتضافرت جهود الرياض وطهران على إحداث انعطاف جذري في سياسة مصر بعد موت جمال عبد الناصر. وحتى بداية السبعينات، صار لاتفاق الرياض وطهران في إطار «الأوبك» الكلمة الفصل، إذ كانت حصتهما من صادرات النفط الإجمالي تفوق النصف، وتزعّم شاه إيران والملك فيصل معسكر «المعتدلين» في المنظمة.

والجدير ذكره أنّ السعوديّة كانت تخاف من خطط ونشاطات طهران «الإمبراطورية»... وذكرت مجلة «إيكونوميست» أنّ شاه إيران حاول استمالة الملك فيصل الى اتباع سياسة موحّدة في منطقة الخليج، بما في ذلك التعاون العسكري الذي يجعل السعودية في وضع تابع لإيران... واستولت إيران على جزيرة أبو موسى، ثمّ على جزيرتي الطمب الكبرى والطمب الصغرى. وكان لاستيلاء إيران على الجزر الثلاث ضربة لمصالح السعودية. ثمّ انبثقت دولة الإمارات العربية المتحدة المؤلّفة من أبو ظبي ودبي والشارقة والفجيرة وعجمان وأم القيوين، ثمّ انضمّت إليها رأس الخيمة، واعتمد عدد من الإمارات على السعودية في محاولة لمنع التنامي الخطير للنفوذ الإيراني.

دور السعودية بعد مؤتمر الخرطوم

حدّد مؤتمر الخرطوم تنسيق السياسة والتسوية في الشرق الأوسط، ووضعت اللاءات الثلاث حيال إسرائيل: «لا صلح، لا مفاوضات مباشرة، لا اعتراف».

وبالنسبة للرياض، كان لا بدّ من الوفاق الإضطراري مع القاهرة، ذلك أنّ فيصل لم يعتبر يوماً عبد الناصر حليفاً له. وعلى الرغم من هزيمة حزيران ١٩٦٧، لم تهدأ العمليّات الثورية في بلدان الشرق الأوسط: الإنقلابات الثورية في ليبيا والسودان ومحاولات الإنقلاب في السعودية نفسها، وتنامي حركة المقاومة الفلسطينية. غير أنّ فيصل كان مطمئناً دائماً الى وجود الأردن دولة فاصلة وحاضرة بينه وبين إسرائيل. لكنّه دأب باستمرار على حثّ الولايات المتحدة وبريطانيا على مساندة الملك حسين.

أمّا في سوريا، فقد سوّى الرئيس حافظ الأسد الذي تسلّم الرئاسة في أواخر ١٩٧٠، والملك فيصل الخلافات التي كانت عالقة بسبب العطل الذي أحدثه جرّار في أنابيب التابلاين في السعودية في أيار (مايو) ١٩٧٠، وكاد يؤدّي الى قطع العلاقات والى حرب التجارة والترانزيت.

وفاة عبد الناصر حافز لتزعم فيصل...

مات الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، وبدأ الملك السعودي فيصل على الفور نشاطه لتزعّم العالم العربي. وعمل على توطيد مواقع القوى اليمينيّة المصرية، التي تخلّت خطوة فخطوة عن متابعة النهج الناصري. وعوّلت واشنطن على دور العربية السعودية وسيطاً لمدّ الجسور بينها وبين العالم العربي، ولا سيّما مصر. وكان الرئيس المصري الجديد محمد أنور السادات مهتمّاً بالتقارب مع السعودية، وطامعاً في زيادة المساعدة المالية. وفي حزيران (يونيو) ١٩٧١، قام الملك فيصل بزيارة الى مصر، وترحيباً به، أطلق سراح «الإخوان المسلمين» ومنحت السعودية مصر ثلاثين مليون جنيه استرليني. وعندما زار فيصل القاهرة سنة ١٩٧٣ في شهر أيار (مايو) تمّ الإتفاق على أن تعتمد السعودية مبلغ ٢٥٠

مليون جنيه استرليني لإعادة تسليح الجيش المصري. وقد ساعد التقارب المصري السعودي على تقوية منهج السادات في القطيعة مع الإتحاد السوفياتي والتوجّه الكامل صوب الولايات المتحدة.

وإثر الحرب العربية الإسرائيلية، عام ١٩٧٣، أخذ يتزايد في المؤتمرات الإسلامية الإهتمام بقضايا التعاون الإقتصادي والإجراءات المشتركة ضد أعمال إسرائيل التوسّعية العدوانية، ودعم الشعب العربي الفلسطيني. وفي اليوم الثاني لبدء الحرب العربية ـ الإسرائيلية أي في ٧ تشرين الأوّل (اكتوبر) ١٩٧٣، أرسل وزير الخارجية الأميركية هنري كيسنجر برقية الى الملك فيصل، يدعوه فيها الى إقناع مصر وسوريا بوقف العمليّات الحربية. وردّ فيصل بأنّه يؤيّد مصر وسوريا تأييداً تاماً، ودعا واشنطن الى بذل الجهود لحمل إسرائيل على الإنسحاب من الأراضي التي تحتلّها. وفي ٩ من تشرين الأوّل (اكتوبر) استدعت القوّات السعودية كلَّ منتسبي القوّات المسلّحة من الإجازات، وأعلنت حالة التأهّب في الجيش، وفي ١٤ من الشهر نفسه أرسلت السعودية وحدة عسكرية لمساعدة سوريا.

والجدير ذكره، أنّه في الخمسينات، كانت سيطرة الولايات المتحدة على نفط الخليج توفّر أرباحاً للشركات، وتبقي في أيدي واشنطن الخرطوم النفطي الذي يغذّي اقتصاد بلذان العالم غير الإشتراكي. وكان الإقتصاد الأميركي آنذاك غير خاضع عملياً لهذا المصدر النفطي، إلاّ أنّ منطقة الشرقين الأوسط والأدنى كانتا تكتسب أهميّة متزايدة في مخطّطات الحكومة الأميركية المعادية للإتحاد السوفياتي.

كذلك، أصبحت الولايات المتحدة في السبعينات المستورد الرئيسي للنفط في العالم، ومن الطبيعي أن يتنامى دور السعودية القادرة على استخراج النفط على مستواه، أو حتى زيادته. وكانت واشنطن تسعى لضمان «أمن الولايات المتحدة في مجال الطاقة» وكانت تقدّم المساعدات الإقتصادية والعسكرية والسياسية لإسرائيل ونهجها العدواني التوسّعي، الأمر الذي قوّض أساس العلاقات المتينة مع الدول العربية.

ففي ٦ تموز (يوليو) ١٩٧٣، أشار الملك فيصل في حديث مع

صحافيّين أميركيّين في جدّة، الى أنّه إذا استمرّ الأميركان في دعم إسرائيل، فسيكون من الصعب على السعودية مواصلة التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة. ودعت السعودية واشنطن الى الضغط على إسرائيل وحملها على تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧، والقاضي بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وإلاّ فإنّ الولايات المتحدة ستواجه عقبات تقليص تصدير النفط.

وعندما أقامت الولايات المتحدة «جسراً جوّياً» لتزويد إسرائيل بالسلاح، عمدت السعودية وسائر الأقطار العربية الى اتخاذ الإجراءات اللازمة حيال ذلك. ففي ٢٠ و٢١ و٢٢ تشرين الأوّل (اكتوبر) من سنة ١٩٧٣، أعلنت البلدان العربية تباعاً وقف ضخّ النفط الى أميركا ثم الى هولندا التي اتخذت كذلك موقفاً موالياً لإسرائيل. كما فرض الحظر على تصدير النفط الخام الى معامل التكرير التي تصدّر مشتقّات النفط الى الولايات المتحدة الأميركية أو تبيعها الى الأسطول الحربي الأميركي.

وفي ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر)، قرّرت البلدان العربية المنتجة للنفط في مؤتمرها الدوري في الكويت زيادة استخراج النفط في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ بنسبة ١٠٪، وتصديره بالكميّات السابقة الى اليابان وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا وإسبانيا والفيليبين. وتجدر الإشارة هنا الى أنّ استخدام سلاح النفط ضد أميركا لم يمارس تأثيراً ملموساً على الوضع الإقتصادي للولايات المتحدة الأميركية وسائر البلدان المعادية للعرب، وبالتالي لم يغيّر سياستها. لكنّ، استخدام سلاح النفط ساعد الملك فيصل على مدّ الجسور بين مصر والولايات المتحدة وإحداث تحوّل كامل في سياسة مصر الخارجية وتعزيز القوى اليمينيّة داخلها. وساعدت السعودية على تعزيز القوى المناوئة للإتحاد السوفياتي في منطقة الشرق الأوسط والأدنى كلّها، وفي خارجها أيضاً.

وممّا أثار قلق السعودية أحاديث وسائل الإعلام الأميركية وما جاء على لسان الرئيس الأميركي فورد ووزير الخارجية كيسنجر ووزير الدفاع شليسنجر عن احتمال احتلال الولايات المتحدة لحقول النفط في الخليج والساحل

العربي، ممّا حتّم لقاء بين كيسنجر والملك فيصل في ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٥، لتبديد مخاوف هذا الأخير، والذي تظاهر بدوره بأنّه يثق بوعود واشنطن، علماً بأنّه لم يكن لدى الأسرة المالكة أيّ مخرج آخر.

غير أنه، وفي ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٥، وأثناء استقبال الملك المهنّئين بالعيد، أُطلقت عليه النار من المسدّس ابن أخيه فيصل بن مساعد فقتل، وهو العائد لتوّه من الولايات المتحدة حيث أمضى عدّة سنوات. ومنهم من قال إنّ دوافع هذه الجريمة شخصية، فالأمير الشاب فيصل بن مساعد عقد قرانه على إحدى بنات الملك الراحل سعود، وتنتسب أمّه الى آل رشيد، وقد قتل رجال الشرطة أخاه، وهو من المتعصّبين دينيّاً أثناء مظاهرة احتجاج على افتتاح محطة التلفزيون في الستينات؛ ومنهم من يقول إنّ بن مساعد كان مختلاً عقليّاً؛ وهناك من يقول إنّ وراء القاتل يداً أميركية أوحت بالعمليّة انتقاماً من فيصل لمشاركته في المقاطعة النفطية، وكي يكون ذلك تحذيراً لسائر أفراد الأسرة المالكة. ولم تعلن الدوافع الحقيقية للجريمة، وأُعدم ابن مساعد.

الأمير فهد يصوغ سياسة البلاد

بُويع خالد ملكاً وأصبح رئيساً للوزراء. وقام بصياغة السياسة الداخلية والخارجية ولي العهد الأمير فهد الذي صار النائب الأوّل لرئيس الوزراء، واحتفظ مؤقتاً بمنصب وزير الداخلية. وأصبح قائد الحرس الوطني الأمير عبدالله، بينما أُسندت وزارة الدفاع والطيران الى الأمير سلطان شقيق فهد. ولم يكن في الأحداث الداخلية خلال السنوات الأربع عقب اغتيال فيصل أي خطر على ضرب الإستقرار.

إنّما منذ آب (أغسطس) ١٩٧٩، نما الى علم السلطات السعودية أنّ خلايا سرّية تشكّلت في الجيش النظامي وأنّ أسلحة تُهرّب الى البلد، وأنّ مظاهر الاستياء تلاحظ في أوساط الأمراء الشبّان. ولقطع دابر تهريب الأسلحة الى البلد حظّرت السلطات السعودية مرور قوافل الشاحنات المحمّلة بالبضاعة والقادمة من لبنان وسوريا عبر أراضي المملكة. وفي أيلول (سبتمبر)

اعتقل عدد من ضبّاط الطيران والدبابات والمُشاة، وجرت حملة اعتقالات ثانية بعد توزيع عدد كبير من المنشورات في البلد في الشهر نفسه تدعو للعودة الى التمسّك بأهداب الدين الإسلامي، أو الإطاحة بـ«الحكّام المستبدّين العملاء، كما طالب بعضها بطرد الأجانب من المملكة.

وبدأت الإضطرابات المناوئة للحكومة في أواسط تشرين الثاني (نوفمبر) في الحجاز، وفي جزءٍ كبير من الأراضي بين مكّة والمدينة. وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ سيطر المنتفضون على المسجد الحرام. وقامت منظمة «حركة الثوّار المسلمين» في شبه الجزيرة العربية وأعلن زعيمها الروحي محمد القحطاني الذي أطلق على نفسه اسم «المهدي» أنّ هدف الحركة يتمثّل في «تطهير الإسلام» و«تحرير البلد من زمرة الكفّار: العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة». أمّا الزعيم السياسي فكان جهيمان العتيبة البالغ من العمر ٤٧ سنة. ودعا «الثوّار» للعودة الى النظام السائد في صدر الإسلام الذي قالوا عنه إنّه كان «العصر الذهبي» عصر العدل والمساواة.

وقرّر ولي العهد الأمير فهد العائد من تونس لتوّه قمع الإنتفاضة بالقوّة. واستمرّت المقاومة الضارية التي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعاً، قيل إنّه صرع خلاله عشرات الأشخاص، وكان بين القتلى «المهدي» نفسه؛ أمّا جهيمان العتيبة فقد أُعدم مع ٦٢ من رفاقه في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠. وكان بين من أُعدموا علاوة على السعوديّين، مصريّون ويمنيّون وكويتيّون وعرب آخرون. والجدير ذكره أنّه أثناء الصدامات في مكّة بدأ التململ بين أوساط الشيعة في المنطقة الشرقية، ورابط آنذاك ١٢ ألفاً من جنود الحرس الوطني حول حقول النفط. واستمرت الإضرابات ثلاثة أيّام.

وبناء على مطالب «الإصلاحيّين» والتكنوقراطيّين والموظّفين وممّثلي «الفئات الوُسطى» الراغبين بالمشاركة في السلطة أعلن ولي العهد فهد عن الشروع في وضع «قانون أساسي» ينص على تعيين مجلس شورى.

وتمّ توسيع أجهزة الأمن السعودية وساهم في دور فعّال وكبير المستشارون الذين أرسلتهم الى الرياض وكالة المخابرات المركزية الأميركية

ومخابرات جمهورية ألمانيا الإتحاديّة وفرنسا. وازدادت رواتب الجيش النظامي والحرس الوطني مرتين خلال بضعة أشهر.

وجرت في كانون الثاني (يناير) مناورات وتدريبات مصريّة أميركية مشتركة في قلب السعودية، وشكّلت جزءاً من مناورات أوسع في المنطقة. وساد الهدوء البلد منذ مطلع عام ١٩٨٠.

انتقال السلطة الى فهد

. . . في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، مات الملك خالد إثر نوبة قلبية، فانتقلت السلطة الى ولي العهد فهد دون مشاكل، وأصبح عبدالله أخوه لأبيه وليّاً للعهد. ويُوصف عهد فهد بالمرحلة الثرية في تاريخ السعودية، فالملك هو رائد الإصلاحات الشاملة في الحياة السياسية والإقتصادية وقائد النهضة الحديثة في المملكة.

الفصل الثاني والعشرون

السعودية
في
أواخر القرن العشرين

الحياة الإجتماعية

في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات، ظهرت تنظيمات دينيّة سياسيّة غير حكوميّة، مثل «أهل الدعوة» و«الفجر» و«حركة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية». وكلّها تدعو الى الحفاظ على الأصول الإسلامية، وليس الى الإصلاح. وهذا التعصّب جعل علماء الدين ينحازون الى معارضة النظام. وكانت تلك المعارضة تقلق السلطات، فالملك فهد حاول في حينها أن يحدّ من الموجة الجديدة للتعصّب الإسلامي خشية المخاطر الناجمة عنها، ووضع عوائق اجتماعية في طريقها... فهو قد دعم الإسلام ولكنّه أيّد المعتدلين من دعاة الإصلاحات الإجتماعية.

ولعلّه من الطريف أن نذكّر أنّ الملك فهد قد اجتمع في نيسان (أبريل) ١٩٩١، مع أربع نساء كنّ من بين المتظاهرات في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠ في أحد شوارع العاصمة السعودية، والمطالبات بالسماح للإناث بقيادة السيّارات ومنع اعتقالهنّ في مراكز الشرطة الى حين تسليمهن لآبائهن أو لأزواجهن. وبعد ستة أشهر من الإجتماع عُدْن الى العمل، وتلقّين تعويضات عن الخسائر وأُعيدت لهنّ هويّاتهن، ومع ذلك لم يرَ أحد سيّدات يقدن سيّارات في شوارع العربية السعودية.

نظام الحكم

إنّ السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة كاملة، وإنّ دين الدولة هو الإسلام، ودستورها كتاب الله تعالى وسنّة رسوله كما نُشر في أوامر الملك فهد في آذار (مارس) ١٩٩٢.

ويستند نظام حكم السعوديّين الى العدالة والشورى والمساواة. وكل ثروات البلاد برّاً وبحراً ملك الدولة التي يتكوّن أساسها من الملكيّة والمال والعمل. وتؤمّن الدولة حرّية وحرمة الملكية التي لا يجوز انتزاعها إلاّ بالحكم. وتُجبى الزكاة وتُنفق وفقاً لأحكام الشريعة.

وتتعهّد الدولة بحماية الإسلام وتطبيق أحكام الشريعة التي تؤمّن حقوق الإنسان وتعمل من أجل التضامن ووحدة الأمّة العربية والإسلاميّة. وتدعم الدولة مؤسّسات الضمان الإجتماعي وتشجيع الأعمال الخيريّة.

وتؤمن القوّات المسلّحة السعودية حماية الدين والحرمين الشريفين والأُمة والوطن. وإنّ حماية الدين الإسلامي والأمّة والوطن واجب على كل مواطن.

إنّ السلطات القضائية في البلاد مستقلة تحكم وفقاً لأصول الشريعة. والملك ومن يقوم مقامه مدعوّون الى تنفيذ أحكام المحكمة. ويعيّن أعضاء المجلس القضائي الأعلى لهذا المنصب ويعفون منه بمرسوم ملكي وبتوصية من المجلس المذكور.

ويوجّه الملك سياسة البلاد وفقاً لمبادىء الإسلام، ويتابع التقيّد بأحكام الشريعة والحفاظ على النظام في البلاد وتأمين الدفاع عنها. ويترأس مجلس الوزراء، ويعيّن ويعفي نوّابه وأعضاء الوزارة، الذين يتحمّلون معه مسؤولية الأوضاع في البلاد.

ويتمتّع الملك بصلاحية حلّ الحكومة وتشكيلها. والملك هو القائد العام للقوّات المسلّحة، يعيّن وينحي الضبّاط، ويعلن حالة الطوارىء والنفير وحالة الحرب. ويمكنه أن يحيل بعض صلاحيّاته الى ولي العهد.

ويشكّل الملك مجلس الشورى، ويحدّد نظام عمله ويختار أعضاءه، ويحلّ المجلس ويعيد تشكيله من جديد.

ووفقاً للمرسوم الملكي يتكوّن مجلس شورى الدولة من رئيس و٦٠ عضو يختارهم الملك ويحدّد المرسوم الملكي حقوقهم وواجباتهم. ولا يكون عضواً في لمجلس إلاّ السعودي من حيث الأصل والتربية، وسنّه لا

تقل عن الثلاثين. ومدّة صلاحيّات هذا المجلس اللاحكومي أربع سنوات قمريّة. ويعبّر المجلس عن رأيه في المسائل العامة لسياسة الدولة الداخلية والخارجية التي يطرحها رئيس الحكومة على بساط البحث. وكذلك في خطط التنمية الإقتصادية والإجتماعية. وينظر في اللوائح القانونية والمعاهدات والإتفاقيّات الدولية والإمتيازات. ويتّخذ المجلس قراراته بأغلبية الأصوات، ويتكوّن نصابه من ثلثي الأعضاء.

السياسة الخارجية في عهد فهد

ورثت القيادة السعودية عن الستّينات والسبعينات وعن عهد المجابهة في مصر مع عبد الناصر، مخاوف بالغة من الحركات الراديكالية اليسارية والأنظمة الثورية الإستبدادية.

كما أنّ دور المملكة العربية السعودية يتركز على دعم التضامن الإسلامي والمحاولات المستمرّة للتوفيق بين المسلمين وجمع كلمتهم اتباعاً للنهج الذي قامت عليه المملكة وتمسّكت به منذ عهد مؤسّسها الملك عبد العزيز الذي أنشأ دولة السعودية في عام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ)، ومنذ ذلك الحين سار عليه قادة المملكة وهو قائم على خدمة الإسلام والمسلمين، ودعم التضامن العربي والإسلامي، وجسّد هذا النهج الملك فهد بن عبد العزيز (عاهل المملكة وخادم الحرمين الشريفين)، في سياسة المملكة الخارجية وفي علاقاتها مع الدول الأخرى وطريقة معالجتها للأوضاع وللأزمات التي حفل بها العالم، سواء في منطقة الشرق الأوسط، أو في غيرها من العالم.

والمملكة العربية السعودية كانت من أوائل الدول العربية التي شاركت في تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤، ووقف الملك عبد العزيز (والد الملك فهد) الى جانب الدول العربية في كفاحها للتحرّر من الإستعمار والنفوذ الأجنبي، ووضع كلّ ثقله الى جانب القضية الفلسطينية.

السعودية والسوفيات

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠، أعلن رسميّاً عن استئناف العلاقات

الدبلوماسية بين الإتحاد السوفياتي والمملكة السعودية بالحجم الكامل، وافتتحت السفارة السعودية في موسكو والسفارة السوفياتية في الرياض. ثم زار موسكو وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل وغيره.

السعودية والأنظمة اليمينية

لقد طبّقت السعودية في السبعينات والثمانينات سياسة دعم الأنظمة اليمينية الموالية للغرب. وكانت المساعدات السعودية مشروطة في حالات كثيرة بتطبيق نهج معاد للشيوعية وللإتحاد السوفياتي، الى ما بعد انتهاء «الحرب الباردة» وسقوط الشيوعية وتقوّض الإتحاد السوفياتي وتبدّل الوضع في العالم، وفي الشرقين الأدنى والأوسط.

ومع التغيّرات الدولية، كانت مكانة المملكة ولا تزال تزداد عمقاً ورسوخاً. وكان للزيارات التي قام خادم الحرمين الشريفين، (عاهل المملكة العربية السعودية الأمير فهد بن عبد العزيز)، لعدد من الدول أثرها في توطيد علاقات المملكة بالخارج. وقد كانت له مواقفه في التغلّب على الأزمات السياسية والإقتصادية، وكانت وقفته المعروفة من قضية أسعار البترول وحجم الإنتاج في دول (أوبيك) موقع تقدير، ودوره حيوي في علاج هذه القضية مساعداً على الإستقرار العالمي. . . ولقد كان للسعودية دور فعّله الملك فهد من خلال منظمة الأمم المتحدة التي شاركت في تأسيسها ومن خلال الهيئات والمنظمات المنبثقة عنها.

المراجع

١ ـ «تاريخ العربية السعودية من القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن العشرين» أليكسي فاسيليف، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٥٠.

٢ ـ أرشيف جريدة الشرق الأوسط الصادرة في لندن.

٣ ـ «العرب قبل الإسلام»، جرجي زيدان.

٤ ـ تقارير لمؤسّسة «بارينغز سيكيوريتيز» التابعة لمجموعة «أي ان جي بارينغز» المصرفية في لندن.

٥ ـ أرشيف جريدة الرياض السعودية.

٦ ـ أرشيف مجلة الحوادث الأسبوعية العربية

القسم الثاني

الإمارات العربية المتحدة

أمل عجيل

لمحة جغرافية

١ ـ الموقع والمساحة

كانت دولة الإمارات العربية المتحدة تُعرف في ما مضى بدول الهدنة، ولم تأخذ اسمها الذي نعرفه اليوم إلاّ في ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١. وتقع هذه الدولة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية وتحدّها من الشمال والشمال الغربي مياه الخليج، ومن الغرب قطر والمملكة العربية السعودية، ومن الجنوب سلطنة عُمان والمملكة العربية السعودية، ومن الشرق خليج عُمان والسلطنة.

تمتدّ الإمارات العربية المتحدة على مساحة ٨٣,٦٠٠ كلم٢، وهي تتألف من سبع إمارات، هي أبو ظبي (العاصمة) ودُبي والشارقة ورأس الخيمة والفجيرة وأم القيوين وعجمان. وتحتلّ إمارة أبو ظبي القسم الأكبر من مساحة الدولة إذ تمتدّ على ٦٧,٣٤٠ كلم٢ (أي ٨٦,٦٧٪ من مساحة الدولة ككلّ)، في حين أنّ دُبي تحتلّ مساحة ٣,٨٨٥ كلم٢ (٥٪ من المساحة الإجمالية). أمّا الشارقة فهي تمتدّ على ٢,٥٩٠ كلم٢ (٣,٣٣٪). وتمتد أُم القيوين على ٧٧٧ كلم٢ (١٪)، ثمّ الفجيرة ومساحتها ١,١٦٥ كلم٢ (١,٥٪)، ورأس الخيمة التي تحتلّ مساحة ١,٦٨٤ كلم٢ (٢,١٧٪)، وأخيراً تمتدّ إمارة عجمان على ٢٥٩ كلم٢ (أي ٠,٣٣٪) وهي بالتالي الأصغر حجماً. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ دولة الإمارات العربية المتحدة تحتلّ المرتبة الثالثة من حيث المساحة بين دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية بعد المملكة العربية السعودية وسلْطنة عُمان.

وقد كان لموقع هذه الدولة الاستراتيجي أهمية كبرى منذ القدم حتى يومنا هذا. ففي القديم كانت التجارة المتوجّهة إلى مختلف الأقطار، لا سيّما

منطقة جنوب شرق آسيا بين أيدي سكّان هذه المنطقة. وكانت السفن كلّها المتوجّهة من الخليج العربي ومضيق هرمز إلى المحيط الهندي تمر كلّها حتماً بالإمارات، ممّا أدّى إلى ازدهار تجارتها واقتصادها بشكل عام.

أمّا في وقتنا الحالي فتُعتبر هذه المنطقة ممرّاً لناقلات النفط المتوجّهة نحو أوروبا الغربية واليابان.

٢ ـ السكّان

يصل إجمالي عدد السكّان في الإمارات السبع إلى حوالي ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة. وهم يتوزّعون على الشكل التالي:

أبو ظبي ٤٥٠ ألف نسمة، دُبي ٦٣٧ ألف نسمة، الشارقة ٣١٤ ألف نسمة، الفجيرة ٦٣ ألف نسمة، عجمان ٧٦ ألف نسمة، أُم القيوين ٢٧ ألف نسمة ورأس الخيمة ١٣ ألف نسمة. وبالتالي تكون إمارة دُبي تستقطب القسم الأكبر من السكّان. وتصل الكثافة السكّانية من الإمارات العربية المتحدة إلى ٢٠,١ نسمة في الكيلومتر المربّع. أمّا العملة المتداولة فيها فهي الدرهم الإماراتي واللغة الرسمية هي اللغة العربية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ سكّان دولة الإمارات المتحدة هم غير متجانسين إجمالاً، ممّا يجعل هذه الدولة هشّة وعرضة لأي تدخّل أجنبي في الشؤون الداخلية. ولقد وفدت إلى هذه المنطقة جاليات عديدة تعود في أصلها إلى جنوب شرق آسيا وهي تشكّل القسم الأكبر من حجم السكّان (الباكستانيون ١٩,٥٪، الهنود ١٤,٨٪، الإيرانيون ٦,٨٪). ويشكّل العرب الذين هاجروا إلى الإمارات حوالي ١٨,٥٪ من عدد السكّان.

أمّا من الناحية الدينية فيعتنق معظم الإماراتيّين الدين الإسلامي (٨٠٪) وهم ينتمون بغالبيّتهم إلى المذهب السنّي.

وتعود أصول السكّان الإماراتيّين الأصليّين إلى قبيلتين عربيّتين هما «القواسم» و«بني ياس» اللتين سكنتا في هذه المنطقة في القرن الثامن عشر. فأقام القواسم في الجزء الشرقي من الساحل وبحكم سيطرتهم على مضيق هرمز كانوا أسياد التجارة في المنطقة وتمكّنوا من مقاومة الأوروبيّين. وينتمي

حكّام رأس الخيمة والشارقة الحاليّون إلى هذه القبيلة. أمّا قبيلة بني ياس فلقد سكنت في القسم الداخلي وامتدّت سلطتها في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر من دُبي إلى قطر.

وبالنسبة إلى المجتمع فهو يتألف من سكّان المدن لا سيما في أبو ظبي ودُبي. وتعيش نسبة ١٥٪ من السكّان حول الواحات، ويعمل معظم أفراد هذه الفئة في الجيش وقوّات الشرطة، لذلك تتمسّك السلطة بولائهم وتعتمد عليه.

٣ ـ المناخ

يعتبر مناخ الإمارات العربية المتحدة صحراويّاً لكنّه يختلف عن مناخ باقي الدول الواقعة في المنطقة نفسها. وتؤدّي نسبة الرطوبة المرتفعة جداً في فصل الصيف إلى ارتفاع معدّلات درجات الحرارة. وتجدر الإشارة هنا إلى وجود اختلافات كبيرة بين مناخ المناطق الساحلية والصحراوية الداخلية ومناخ المرتفعات. ففي شهر تموز (يوليو) يتعدّى متوسّط درجة الحرارة ٣٧,٧ درجة، في حين أنّ المناخ يكون أكثر اعتدالاً في الجبال والمرتفعات. فيتراوح متوسّط درجات الحرارة في الصيف بين ١٧,٩ و٢٢,٦٥ درجة مئوية كحدّ أدنى و٤١,٦٨ و٤٤,١٨ درجة مئوية كحدّ أقصى. وقد ينتشر الضباب في المناطق الساحلية بسبب تشبّع الجو في بالماء. أمّا في الشتاء فتنخفض هذه النسبة إلى ١٦,١ درجة مئوية كحدّ أدنى و٣٤,٦٨ درجة مئوية كحدّ أقصى.

أمّا في ما يتعلّق بمعدّل هطول الأمطار فهو يختلف من سنة إلى أخرى ومنطقة وأخرى. وتتلقّى إمارتي الفجيرة ورأس الخيمة أكبر نسبة من الأمطار بسبب قربها من سلاسل الجبال لذلك نجد فيها أراضٍ خصبة تصلح للزراعة.

٤ ـ التضاريس

ليس لهذه الدولة نموذج معيّن يسيطر على كافة أراضيها. إنّما تتنوّع التضاريس من سهل رملي ضيّق إلى أراض صحراوية ومناطق زراعية. ويعيش العدد الأكبر من السكّان في القسم السّاحلي الذي يلتفّ حول الخليج العربي. وهي منطقة تنتشر فيها الأراضي الملحية وتغلب عليها الصحارى حيث يعيش بعض الشجيرات.

٥ ـ الاقتصاد

* الزراعة

تدعم حكومة الإمارات قطاع الزراعة وتقدّم له المساعدات لتحسين نوعية الإنتاج وكميّته. ولقد بيّنت الإحصاءات التي أُجريت سنة ١٩٩٢ أنّ المساحات المروية تغطّي ٤٧ ألف هكتار وهذا مفيد جداً للزراعة. أمّا الموارد النباتية فهي ترتكز على الخضار والفواكه. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ القسم الأكبر من اليد العاملة يعمل في هذا القطاع الذي يؤمّن أكثر من ٢٠٪ من حاجات السكّان الغذائية.

وتلعب تربية الماشية دوراً مهمّاً من الناحية الاقتصادية، إذ تؤمن تربية الدواجن حاجات السكّان من حيث البيض ولحم الدواجن، فضلاً عن صيد الأسماك الذي يرتفع حجمه من سنة إلى أخرى. أمّا ماشية الإمارات فهي تتألف من ٧ ملايين طير و٨٥٠ ألف رأس من الماعز و٤٠٠ ألف رأس من الغنم و١٢٠ ألف رأس من الجمال و٥٠ ألف رأس من البقر. وبلغ إنتاج صيد الأسماك حوالي ٩٢,٦٠٠ طن.

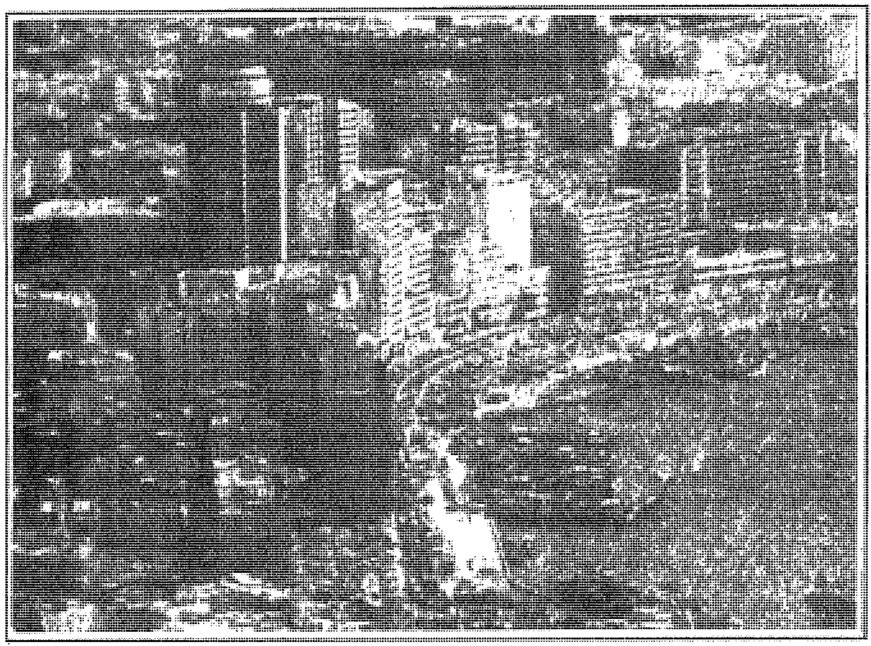
* الثروة المنجمية

يعتبر البترول والغاز الطبيعي حجر الأساس لاقتصاد دولة الإمارات العربية المتحدة إذ يشكّل حوالي ٩٠٪ من صادرات البلاد.

ويصل إنتاج البترول إلى ١١٥ مليون طن والغاز الطبيعي إلى ٢٣,٢ مليار م^{٣}، واحتياطي البترول إلى ١٣,٤ مليار طن، واحتياطي الغاز الطبعيي إلى ٥٨٠٠ مليار م^{٣} فهي تحتل بالتالي المرتبة الثالثة عالمياً من حيث احتياطي النفط والمرتبة الثامنة من حيث البترول والمرتبة السادسة عشرة من حيث إنتاج الغاز الطبيعي.

* الصناعة

للصناعة دور مهمّ في الاقتصاد الإماراتي، فهي تساهم بحوالي ١٥٪ من إجمالي الناتج القومي. وترتكز هذه الصناعة على مصفاتين للنفط (أم النار ورويس) وثلاث وحدات لمعالجة الغاز ومصنع لمحلول النشادر وثمانية



إمارة دبي

مصانع للإسمنت ومصانع لتحلية مياه البحر ومصنع للألومينيوم. أمّا أهمّ الصناعات الإماراتية فهي المواد الغذائية والمعادن والمواد الكيميائية والإسمنت (٥ مليون طن سنوياً).

في النهاية يعتبر اقتصاد الإمارات العربية المتحدة اقتصاداً سليماً ومزدهراً. أمّا إمارة أبو ظبي فيعتمد اقتصادها على عائدات البترول والغاز التي تصل إلى ٥٠ ألف دولار سنوياً للشخص الواحد. وتُعتبر إمارة دُبي منطقة حرّة يستطيع الأجانب أن يمتلكوا فيها ١٠٠٪ من رأس المال مقابل ٤٩٪ في الإمارات الأخرى. ونجد في إمارة الشارقة صناعات متطوّرة نسبياً مثل صناعة النسيج والأسلحة لكنّها إمارة استهلكت مواردها النفطية. أمّا رأس الخيمة وعجمان والفجيرة وأم القيوين فهي تعتمد على المساعدات التي تقدّمها لها الدولة.

الإمارات في التاريخ القديم

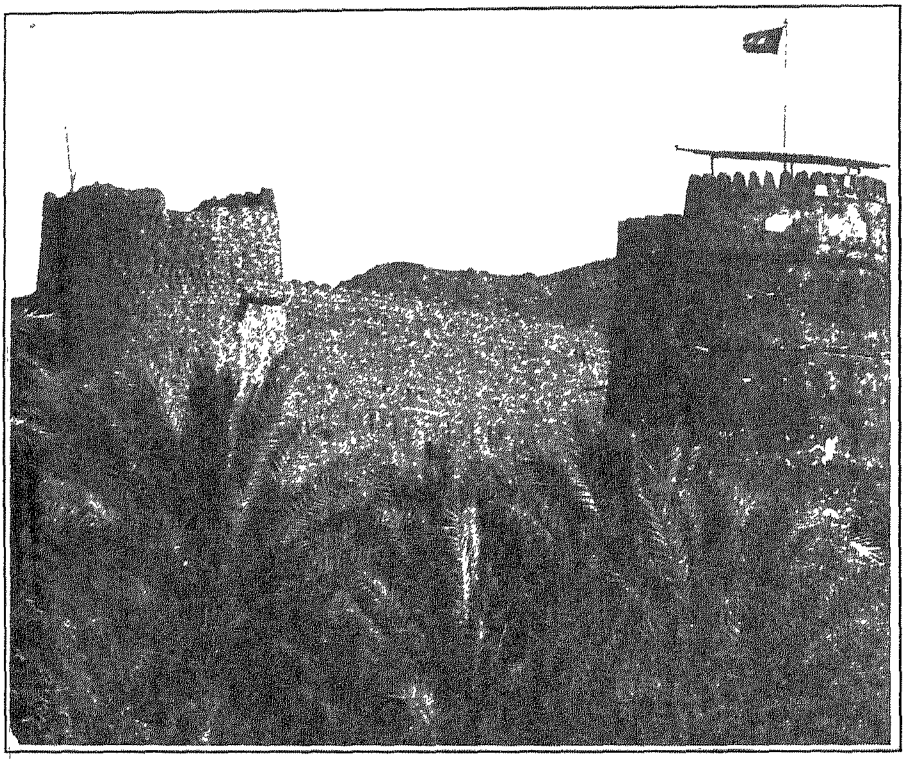
أثبتت الآثار التي عثر عليها المنقّبون الوطنيّون والأجانب سنة ١٩٥٨ من مدافن حجرية وأوانٍ فخارية أنّ لهذه المنطقة تاريخاً قديماً جداً يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد. ويظن بعض الباحثين أنّ جذور الإمارات تمتد إلى العصر الحجري الحديث بسبب المواقع البشرية التي تمّ اكتشافها بالقرب من مدينة العين.

ولقد عاشت في هذه المنطقة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد شعوب تأثرت بالحضارة السومرية وحضارة وادي السند وجنوب إيران. ولعبت المبادلات التجارية دوراً مهمّاً في حياة تلك الشعوب إذ كانت هذه المنطقة محطة للقوافل التجارية البحرية والبرية.

غير أنّه على الرغم من الآثار التي عثر عليها يصعب على الباحثين تحديد هويّة السكّان الذين قطنوا هذه المنطقة ومعرفة لغتهم. لذلك ذهب البعض إلى الاعتقاد أنّ هذه الشعوب هي أصل السومريّين الذين استقرّوا في جنوب العراق.

في العهدين اليوناني والروماني

لقد طبع العهد اليوناني تاريخ الخليج القديم بشكل ملحوظ إذ ازدهرت في تلك الفترة الملاحة والتجارة بين هذه المنطقة وباقي أنحاء العالم. ويظن بعض المؤرّخين أنّ الأسكندر المقدوني أدرك ما لموقع هذه المنطقة من أهمية استراتيجية فأرسل أحد قوّاده وهو نيارخوس سنة ٣٢٤ قبل الميلاد في



القصور الرّباط، والمدافع العتيقة، كانت تستعمل في القديم للدفاع

محاولة للسيطرة على تجارة الطيّب والمرّ والبخور المزدهرة آنذاك. ولم تتوقف محاولاته عند هذا الحدّ، بل أرسل فرقاً أخرى وقوّاداً آخرين للاستطلاع حول الساحل العربي غير أنّ جفاف المنطقة وقسوة مناخها حالا دون نجاح هذه المهمة. واستمرّ الاسكندر في محاولاته حتى وفاته في بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد.

وورد في كتابات مؤرّخي الاسكندر أنّ الفينيقيّين قد وضعوا يدهم في القرن الرابع قبل الميلاد على التجارة في الخليج وألقوا الضوء على سائل أسود لزج يشعل المصابيح فاعتبر ذلك أوّل إشارة لوجود النفط.

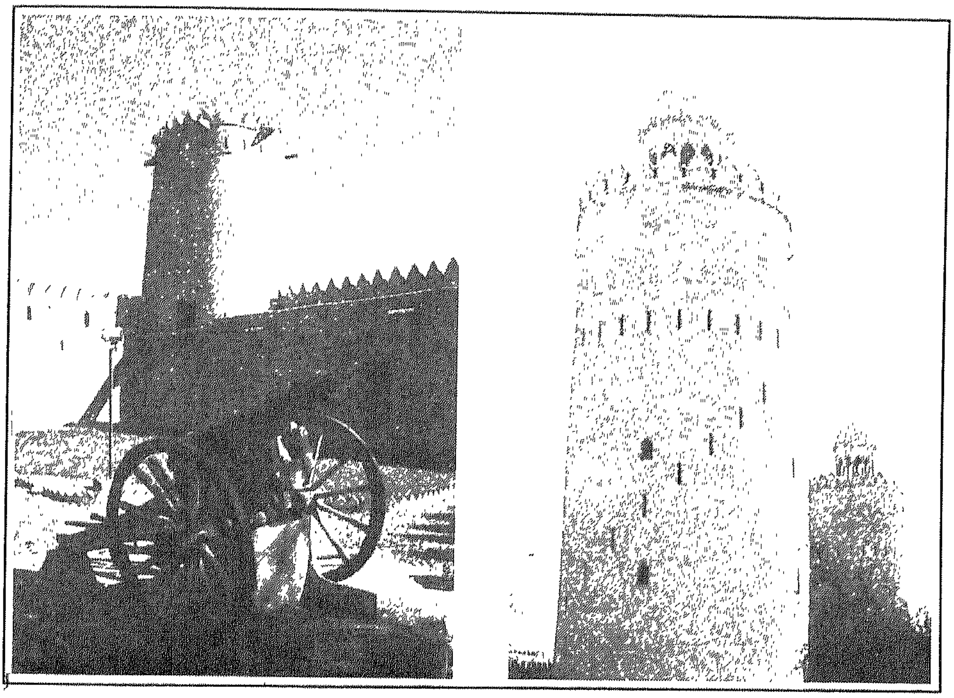
وحاول الأمبراطور الروماني تراجان أن يكمل ما بدأه الاسكندر فأرسل جيوشه إلى الخليج. لكنّها سرعان ما وجدت عدوّاً جديداً لها يتمثّل بالفرس. فدارت معارك عنيفة بين الفريقين انتهت بفوز فريق ثالث يضمّ العرب الذين عرفوا قوّة لا مثيل لها في تلك الفترة.

في العصر الإسلامي

فتح القائد العربي عمرو بن العاص هذه المنطقة وطرد منها الغزاة والمحتلّين فاختبرت لأوّل مرّة فترة من الإستقرار والهدوء. وعرفت مرحلة من الازدهار التجاري في عهد الخلافة الأموية عندما طوّر مجال الملاحة وعرفت الأشرعة المثلّثة وهذا إنجاز مهمّ نقله عنهم البرتغاليّون في ما بعد. وقال المؤرّخ بانيكار عن ذلك: «ربّما شاقنا أن نلحظ أنّ تزويد السفن بالأشرعة المثلّثة كان من المستحدثات التي نقلها البرتغاليّون عن العرب، ذلك أنّ العرب عندما نزلوا إلى البحر أدخلوا التعديل على الأشرعة التي كانت تستخدم قبل ذلك فخفّفوا من وزن العرق المستعرض وأطالوه ورفعوا قيمة الشراع إلى أعلى كثيراً وشقّوا قاعدته وسرعان ما حصلوا على ذلك الشراع المثلّث الذي لعلّه سيظل حيّاً في حين تندثر كل آية أخرى من آيات طاقتهم المبكرة «في ميادين الفتح».

في العصور الحديثة

لم تدم طويلاً فترة العزّ التي عرفها العرب، فمنذ سنة ١٤٩٢ منيوا بهزيمتين عظيمتين أضعفتا سلطتهم في المنطقة التي فتحت أبوابها على مصراعيها أمام العدو الغازي. فكانت أوّل هزيمة تقويض قشتالة لمملكة غرناطة في شبه الجزيرة الإيبرية بعد معارك عنيفة استمرّت حوالي عشر سنوات. وكان الفاتيكان يموّلها بشكل أساسي. أمّا الهزيمة الثانية فبدأت في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي عندما خسر العرب سيادتهم على الملاحة



آثار قديمة في دولة الإمارات

في الخليج العربي وبرّ عُمان وقسم من المحيط الهندي ودورهم التجاري كوسيط بين الشرق والغرب الذي لطالما لعبوه إثر وصول الاوروبيّين بمساعدة عربية إلى الشرق، ومن ثمّ الإستيلاء على تجارة الهند والملاحة.

كانت الدول الأوروبية تتّصل بالهند عبر طريق برية، غير أنّ العثمانيّين كانوا قد قطعوا هذه الطريق وتوغّلوا في قلب القارة الأوروبية. فاضطر هؤلاء إلى إيجاد حلّ بديل. وكانت دولة البرتغال، في تلك الفترة، أمّة فتية تتمتّع بأسطول بحري مهمّ تلقى معظم ملاّحيه الدروس على يد عرب الأندلس الذين ذاع صيتهم كأفضل روّاد للبحر. غير أنّه على الرغم من ذلك كلّه غاب عن بال البرتغاليّين أمران أساسيّان لا بُدّ من إدراكهما للوصول إلى الهند، هما معرفة الخطوط الملاحية وحركة الرياح. وهذا ما يُبرّر تحطّم عدد كبير من السفن البرتغالية عند صخور شبه الجزيرة العربية. فلم يتمكّن الغزاة من دخول الهند إلاّ سنة ١٤٩٨. فارتكب البرتغاليّون المجازر بحق سكّان الخليج العربي ودمّروا مسقط وخروفكان وأحرقوها. ودامت سلطتهم على المنطقة طوال القرن السادس عشر.

غير أنّ المقاومة التي أبداها العرب والمنافسة التي أظهرتها هولندا وبريطانيا وفرنسا التي ندّدت بانفراد البرتغاليّين بالسيطرة على الخليج أدّتا إلى تراجع سيادة البرتغاليّين وإضعافها. وتمكّنت بريطانيا من طرد هؤلاء من المنطقة سنة ١٦٢٥ ثم أبعدتهم نهائياً سنة ١٧٦٦.

وفي بداية القرن التاسع عشر، نهضت في المنطقة قوّتان عربيّتان تتمثّلان في قبيلة بن ياس، التي ينحدر منها رئيس الدولة الحالي زايد بن سلطان آل نهيان، والتي فرضت سلطتها على المنطقة السفلى من الخليج وهي تشمل المدينتين المعروفتين اليوم تحت اسم أبو ظبي ودُبي. وتتمثّل القوّة الثانية في قبيلة القواسم التي شكّلت قوّة بحرية تخطّت الخليج ووصلت إلى أعماق المحيط الهندي وراحت تتحدّى الأساطيل والسفن البريطانية وتواجهها بشجاعة وعزم. أمّا عاصمة هذه القبيلة ومركزها الأساسي فكان منطقة رأس الخيمة.

وبسبب هذه القوّة الداخلية التي تتمثّل بدولة القواسم والقوّة الخارجية وهي تتمثّل بفرنسا التي عمدت إلى شتى الوسائل لقطع طريق الهند على بريطانيا فاتصلت بزعماء الخليج وأمراء الهند واحتلّت مصر سنة ١٧٩٨، لم تستطع بريطانيا أن تحصل على سلطة مطلقة. ولحلّ هذا الموضوع عقدت اتفاقية مع دولة عُمان، وهي كانت على خلاف مع القواسم، تهدف إلى إبعاد النفوذ الفرنسي عن المنطقة وحماية المواصلات البريطانية مع الهند والحصول على تأييد طرف عربي. ولم تكتف بريطانيا بذلك، بل قامت بحملة عسكرية عظيمة استهدفت رأس الخيمة. فهاجمتها في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٠٩ وأحرقت السفن ودمّرت المنازل، ولم يحقّق البريطانيّون مآربهم. فعاودت بريطانيا الكرّة وقامت بحملتين جديدتين مكنتاها من احتلال المدينة فدخلتها القوّات البريطانية في ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨١٩. ومع هذا النصر، فرضت بريطانيا سلطتها على مياه الخليج ودمّرت القواسم. وانتقاماً لشرف القواسم، دمّر بنو ياس طراداً بريطانياً سنة ١٨٣٤.

ولتعزيز سلطتها في المنطقة عقدت بريطانيا معاهدات مع شيوخ الإمارات، كانت أوّلها معاهدة سنة ١٨٢٠ لضمان حرية الملاحة في الخليج. وفي أيار (مايو) ١٨٣٥ أبرمت «معاهدة السلام البحري الدائم» التي تهدف إلى إيقاف الأعمال العسكرية خلال فترة صيد اللؤلؤ التي تمتدّ طوال ستّة أشهر كل سنة. ثمّ اتّبعت بريطانيا سياسة «فرّق تسدّ» فتحوّل سكّان المنطقة إلى وحدات سياسية صغيرة متناحرة.

وفي سنة ١٨٩٢ عقدت معاهدة جديدة التزمت بريطانيا بموجبها بتسيير السياسة الخارجية وبعدم التدخّل في الشؤون الداخلية للإمارات.

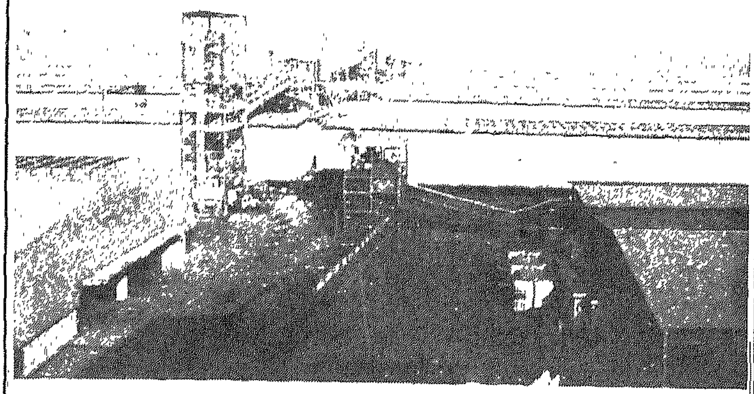
وكان شركة الهند الشرقية تهتم بأمور الدفاع والعلاقات الخارجية منذ ١٨٥٣ حتى ١٨٥٨. ومن ثمّ لعبت هذا الدور حكومة بومبي حتى سنة ١٨٧٣ عندما انتقلت هذه المهام إلى حكومة الهند البريطانية. وبعد استقلال الهند أصبحت وزارة الخارجية البريطانية هي التي تهتم بهذه الأمور وعيّنت لها معتمداً يسكن في البحرين ووكلاء سياسيّين في دُبي وأبو ظبي وقطر والشارقة. وظلّ هذا الوضع على حاله حتى الاستقلال.

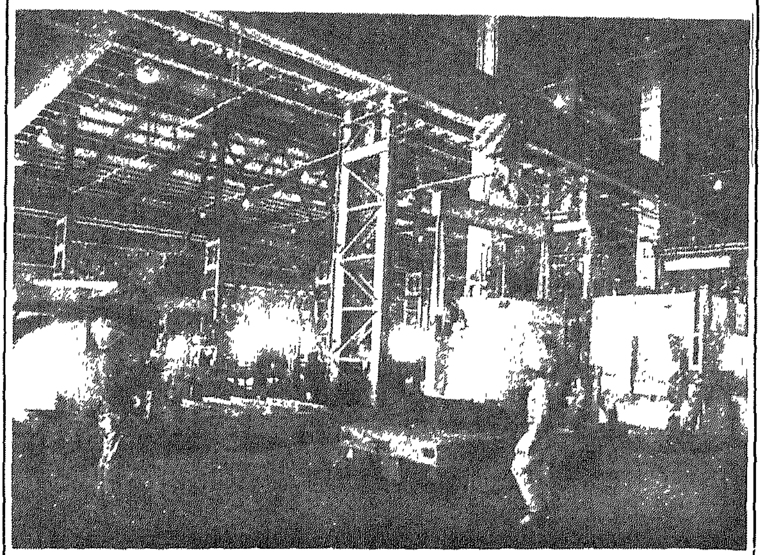
لقد عزّزت الدولة المستعمرة المشيخات والإمارات والوضع القبلي من دون أن تسمح لأيّ من الشيوخ أن يتخطّى «نصائحها». وأدّى هذا إلى نشوب صراعات بين المشايخ، لا سيّما وأن اتفاقية ١٨٥٣ سمحت بنشوب هذه الصراعات لكنّها حدّدتها ضمن إطار البرّ وليس البحر. وكانت هذه الخلافات تحمي مصالح بريطانيا وتعزّز دورها في المنطقة. وعندما أدركت بريطانيا ما لألمانيا وروسيا من أطماع في الخليج عقدت اتفاقات مع شيوخ القبائل تقضي بعدم بيع أراضيهم أو التنازل عنها لأيّة دولة غير بريطانيا وباستشارتها قبل القيام بأيّة علاقات خارجية.

عند اكتشاف النفط في الخليج العربي ازدادت اهمية هذه المنطقة بالنسبة إلى بريطانيا فبدلت سياستها، لا سيّما وأنّ فكرة القومية العربية كانت قد بدأت بالظهور بين أوساط العرب. فأسّست سنة ١٩٥١ ما عُرف باسم «قوّات خليج عُمان المتصالح» (Trucial Oman Levies) وهي قوّات عسكرية تهدف إلى ضمان نفوذ بريطانيا وحماية أمن المشيخات الداخلي والخارجي. كان مقرّها في إمارة الشارقة، وهي تضمّ ضابطاً بريطانياً وضابطين أردنيّين و٣٣ عسكرياً. وفي سنة ١٩٥٥ أصبحت هذه القوّات تضم عدداً أكبر من الرجال (٥٠٠). وفي سنة ١٩٧٥ أُعطيت إسماً جديداً وأُعيدت صياغة أهدافها. وكان تلعب دوراً مهمّاً في فضّ النزاعات التي كانت تنشب بين المشايخ بسبب النفط، كالخلاف الذي نشب بين السعودية وأبو ظبي سنة ١٩٥٥ بسبب واحة البريمي. وفضلاً عن حلّ النزاعات، كانت تقمع الثورات كتلك التي كان مصدرها الجبل الأخضر في عُمان سنة ١٩٥٧. وبعدما نالت الإمارات استقلالها أصبحت هذه القوّات نواة جيشها.

وأسّست بريطانيا سنة ١٩٥٢ مجلس دول الخليج المتصالح الذي ضمّ شيوخ الإمارات السبع. أمّا رئاسة هذا المجلس فكانت بين يدي المعتمد السياسي البريطاني. لم تكن لهذا المجلس أيّة سلطات فعلية بل كانت مهامه تقتصر على تقديم المشورة في ما يتعلّق بالأمور العامة مثل التعليم والصحة والتنمية. . . ولم يوضع لهذا المجلس دستور مكتوب وكانت بريطانيا تتعاون مع إمارة أبو ظبي في ما يتعلّق بتمويله.

التجهيزات النفطية في الإمارات





وفي سنة ١٩٥٨ أُعيد تنظيم المجلس وشكّلت ثلاث لجان، واحدة للزراعة وأخرى للتعليم والثالثة للصحة. وفي سنة ١٩٦٤ شكّلت لجنة وانتخب أعضاؤها حاكم رأس الخيمة الشيخ صقر بن محمد القاسمي رئيساً للمجلس وأسّس صندوق للتنمية.

إستقلال الإمارات العربية المتحدة

لقد مُنيت الحكومة البريطانية خسرت المعركة هائلة سنة ١٩٦٧ عندما انهزمت أمام الثورة المسلحة التي نشبت في اليمن الجنوبي منذ ١٩٦٣. فخشيت من أن تمتد هذه الثورة إلى أعماق الخليج العربي وتهدّد مصالحها في المنطقة، خصوصاً وأنّ انتصارها كانت تقف في وجهه أزمات حادة. فأعلنت في سنة ١٩٦٨ أنّ قوّاتها كلّها ستنسحب من مشيخات الخليج التسع في نهاية سنة ١٩٧١ ودعت هذه المشايخ إلى تأسيس اتحاد يضمّها جميعاً ويحمي مصالحها. غير أنّ مشاكل عديدة كانت تحول دون تنفيذ رغبة بريطانيا منها:

١ ـ الخلافات والنزاعات التي أجّجتها بريطانيا، في ما مضى، بين الشيوخ لتقوية سلطتها وتعزيزها وعدم استعداد أيّ من الشيوخ للتنازل عن أيّ جزء من حدود سلطانه.

٢ ـ خوف الإمارات الصغيرة من الإمارات الكبيرة التي قد تسيطر عليها وتستغلّها، لا سيّما وأنّ الفرق شاسع ما بين هذه المشايخ من حيث المساحة وعدد السكّان والثروة.

٣ ـ عدم تمتّع أي من هذه الإمارات بالصفات التي تؤهلها قيادة باقي الإمارات في ظلّ الاتحاد.

٤ ـ فضلاً عن الخلافات القبلية كانت تمزّق هذه الإمارات خلافات تتعلّق بالحدود، وهذا أمر يضعف قوّة هذه الإمارات.

٥ ـ طمح بعض البلدان المجاورة ببعض هذه الإمارات بسبب ثروتها وموقعها الجغرافي المميّز.

٦ ـ وجود تحالفات متعدّدة بين هذه الإمارات تختلف في ما بينها.

الاتحاد يصبح واقعاً على الأرض

رأت الإمارات العربية بعدما أعلنت بريطانيا انسحاب قوّاتها في نهاية سنة ١٩٧١ أنّه من الضروري أن تعيد النظر في سياستها لكي تكون قادرة على مواجهة هذه المرحلة الجديدة من حياتها. لذا آمن الحكّام أنّ نسيان الخلافات السابقة كلّها وبدء صفحة جديدة من التعاون والوحدة في وجه كلّ تدخّل خارجي هو الحلّ الأمثل. وكان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم إمارة أبو ظبي أوّل من قام بمبادرة لتحقيق هذا الهدف. فزار الشيخ رشيد بن سعيد آل مكتوم حاكم إمارة دُبي في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٦٨ للتباحث بشأن قيام اتحاد بين الإماراتين يكون نواة لاتحاد يضمّ الإمارات كلّها. فكان له ما أراده، وقرّر إقامة اتحاد ثنائي يشرف على الشؤون الخارجية والدفاعية والأمن الداخلي والخدمات الصحية والتعليمية وقضايا الجنسية والهجرة. كما تقرّر إرسال دعوات إلى حكّام الإمارات الأخرى للمشاركة في الاتحاد.

ولبّت الإمارات العربية الدعوة وعقد اجتماع في ٢٥ شباط (فبراير) من السنة نفسها في دُبي، حضره ممثّلو الإمارات التسع. وأعلن على أثره قيام اتحاد يشمل إمارات أبو ظبي والبحرين ودُبي وقطر وأم القيوين والشارقة ورأس الخيمة والفجيرة وعجمان على أن يصبح هذا القرار ساري المفعول بعد شهر واحد. وأُطلق على الاتحاد اسم «اتحاد الإمارات العربية». وتمّ الاتفاق على أن يكون للاتحاد المؤسّسات التالية:

١ ـ مجلس أعلى وهو بمثابة السلطة الاتحادية العُليا، يضمّ حكّام الإمارات ويهتم بتحديد سياسات الاتحاد. تكون رئاسة هذا المجلس مداورة على أعضائه على أن تكون مدّة الولاية سنة واحدة فقط. والرئيس هو الذي يمثّل الاتحاد داخلياً وخارجياً. أمّا في ما يتعلق باتخاذ القرارات فهي تتطلب الاجماع.

٢ ـ مجلس تنفيذي: هو الأداة التنفيذية للمجلس الأعلى ولا تتعدّى سلطته التوصية للمجلس الأعلى. أمّا كيفية تأليفه ونظامه فهي لم تحدّد.

٣ ـ محكمة اتحادية عُليا.

أمّا في ما يتعلق بالأمور الدفاعية فلقد قضى القرار بالتعاضد عسكرياً والتعاون في وجه أي اعتداء خارجي، ولم يذكر أمر تأسيس جيش موحّد.

وأمّا من الناحية المالية فلم تحدّد مساهمة كلّ إمارة بموازنة الاتحاد، وكذلك لم يحدّد موقع العاصمة.

وعقد المجلس الأعلى اجتماعاً ثانياً في ٢٥ و٢٦ أيار (مايو) ١٩٦٨ للتباحث بشأن انتخاب أوّل رئيس للاتحاد واختيار المقرّ الدائم وإعداد الدستور. وهنا نشب خلاف بين قطر والبحرين اللتين أراد كلّ منهما أن يحتل مركز القيادة ويتبوّأ أعلى المناصب. واستمرّت هذه المنافسة في الاجتماع الذي عقد في أبو ظبي في ٦ تموز (يوليو) وانتخب خلاله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيساً للمجلس الأعلى لمدّة سنتين والشيخ رشيد آل مكتوم كنائب له للمدّة نفسها. أمّا في ما يتعلق برئاسة الحكومة الاتحادية فعيّن لهذا المنصب الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني نائب حاكم قطر. واختيرت مدينة أبو ظبي لتكون العاصمة المؤقتة للاتحاد.

وظلّ موقف قطر والبحرين على حاله حتى صدور قرار مجلس الأمن الدولي في أيار (مايو) ١٩٧٠ المتعلق باستقلال البحرين. فأعلنت البحرين وقطر أنّهما تفضلان الحصول على الاستقلال الذاتي وخرجا من إطار الاتحاد.

وفي ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧١ اجتمع حكّام الإمارات التي بقيت في الاتحاد وأعلنوا ما يلي:

«بعونه تعالى، واستجابة لرغبة شعبنا العربي فلقد قرّرنا نحن حكّام أبو ظبي ودُبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة إقامة دولة اتحادية باسم الإمارات العربية المتحدة.

وقد تمّ في هذا اليوم المبارك التوقيع على الدستور المؤقت للإمارات العربية المتحدة. وإذ نزفّ هذه البُشرى السارة إلى الشعب العربي الكريم، نرجو الله تعالى أن يكون هذا الاتحاد نواة لاتحاد شامل يضمّ باقي أفراد

الأسرة من الإمارات الشقيقة التي لم تمكنها ظروفها الحاضرة من التوقيع على هذا الدستور.

وقد تقرّر إرسال وفود لزيارة الدول والإمارات العربية الشقيقة وكذلك الدول الصديقة، من أجل شرح أهداف هذه الخطوة والحصول على تأييدها ودعمها. كما شكّلت لجان لإعداد التشريعات الضرورية للاتحاد وأجهزته، لعرضها علينا في اجتماعنا القادم الذي سيعقد في المستقبل القريب في إمارة أبو ظبي، وذلك لاستكمال الاجراءات اللازمة لإعلان دولة الإمارات العربية المتحدة وتشكيل حكومتها وإنشاء أجهزتها لكي تمارس مسؤوليّاتها في خدمة الشعب وبناء مستقبله الزاهر وللتعاون مع شقيقاتها الدول العربية، ولتتبوّأ مكانها اللائق في الأسرة الدولية.

ونسأل الله تعالى القدير أن يأخذ بيدنا لما فيه خير شعبنا ومنطقتنا وأُمتنا العربية، إنّه سميع مجيب».

وفي الشهر نفسه تمّ الإعتراف عربياً بهذه الدولة إذ أصبحت عضواً في جامعة الدول العربية. وفي السنة التالية قبلت عضويتها في منظمة الامم المتحدة.

أمّا في ما يتعلق بإمارة رأس الخيمة فلقد عادت وانضمّت إلى الاتحاد في ١٠ شباط (فبراير) ١٩٧٢ بعد أن تردّدت طويلاً حول هذا الموضوع.

النظام السياسي

١ ـ السلطة التشريعية

لم يصرّح الدستور علناً عمّن سيتولّى السلطة التشريعية. غير أنّ النصوص تظهر أنّه يتشارك في التشريع كلّ من رئيس الاتحاد والمجلس الأعلى للاتحاد ومجلس الوزراء والمجلس الوطني الاتحادي.

* عضوية المجلس الاتحادي ومدّته

لقد نصّت المادة ٦٨ من الدستور على أن يضمّ المجلس ٣٤ عضواً. إلاّ أنّه بعد انضمام إمارة رأس الخيمة إلى الاتحاد ارتفع هذا العدد إلى ٤٠. أمّا المقاعد فلقد وزعت حسب أهمية الإمارات وحجمها. فكان لكلّ من أبو ظبي ودُبي ثمانية مقاعد وكان لكلّ من عجمان وأم القيوين والفجيرة أربعة مقاعد.

أمّا الشروط التي يجب أن تنطبق على عضو المجلس فهي التالية:

١ ـ أن يكون من مواطني إحدى إمارات الاتحاد ومقيماً بصفة دائمة في الإمارة التي يمثّلها في المجلس.

٢ ـ ألاّ يقل عمره عند اختياره عن ٢٥ سنة.

٣ ـ التمتّع بالأهلية المدنية وحسن السلوك والسيرة وألاّ يكون قد حكم عليه بجريمة مخلّة بالشرف ما لم يكن قد رُدّ إليه اعتباره طبقاً للقانون.

٤ ـ الإلمام الكافي بالقراءة والكتابة.

وليس انتخاب العضو شرطاً أساسياً إذ قد يُعيّن هذا الأخير وفقاً للمادة ٦٩. أضف إلى ذلك أنّه يمنع على العضو أن يتولّى أيّة وظيفة عامة في الاتحاد.

أمّا ولاية هذا المجلس فهي تمتدّ مدّة سنتين مع إمكانية إعادة الاختيار.

*** حلّ المجلس**

يحق لرئيس الاتحاد أن يحلّ المجلس الاتحادي بموافقة المجلس الأعلى للاتحاد ولا يسمح بحلّ المجلس للأسباب نفسها مرّة أخرى. أمّا في ما يتعلق بتأجيل اجتماعات المجلس فهذا من صلاحيّات رئيس الاتحاد على أن يوافق على هذا الأمر مجلس الوزراء الاتحادي وألاّ تتجاوز مدّة التأجيل شهراً واحداً.

*** إختصاصات المجلس**

لهذا المجلس اختصاصات عديدة، لكن أهمّها هو وضع القوانين ومراقبة الحكومة. ولا تتّخذ القوانين بين ليلة وضحاها إذ يتوجّب لذلك ثلاثة عوامل هي الاقتراح ثمّ المناقشة ثمّ التصويت فالتصديق أو الإعتراض، وفي النهاية الاصدار والنشر.

ووفقاً للدستور لا يحق لأعضاء المجلس الاتحادي الوطني اقتراح القوانين أو مشاريع قوانين، إذ أن هذا حق يتمتّع به الوزراء فقط. ومن هنا نلاحظ ما لمجلس الوزراء من سيطرة على السلطة التشريعية.

وبعد أن يقترح مجلس الوزراء قانوناً أو مشروع قانون يطرح للمناقشة أمام المجلس الوطني الاتحادي. غير أنّ هذا النقاش لا يؤخّر ولا يقدّم عملية إبرام القانون إذ يرفع هذا الأمر إلى رئيس الاتحاد والمجلس الأعلى اللذين يبتّان بأمره فإمّا يُصدّق وإمّا يُلغى.

وإذا لاقى القبول عند الطرفين فيُصدّق عليه ويتمّ إصداره. لكن إذا رفضاه أو إذا رفضه المجلس الوطني يعيده المجلس الأعلى إلى المجلس الوطني. فإذا بقي هذا الأخير عند رفضه أو أجرى بعض التعديلات غير المقبول يحق لرئيس الاتحاد أن يصدر مشروع القانون بعد أن يُصدّق عليه المجلس الأعلى دون الأخذ بعين الاعتبار رأي المجلس الوطني. ومن هنا يظهر لنا الدور الهامشي الذي يلعبه المجلس الوطني في عملية اتخاذ القرارات.

ولا يستطيع المجلس الوطني أن يواجه السلطة التنفيذية فهو يطرح فقط أسئلة على رئيس الوزراء أو نائبه أو الوزراء لتوضيح بعض القضايا.

ويحق لهذا المجلس أن يصدر توصيات حول المواضيع التي سمح مجلس الوزراء بأن يناقشها المجلس، ولكنّها لا تكون سوى توصيات.

٢ ـ السلطة التنفيذية

أ ـ المجلس الأعلى للاتحاد

*** طبيعته وتشكيله**

لم يحدّد الدستور طبيعة المجلس الأعلى. لذلك نحن لا نعلم إذا كان سلطة تشريعية أم تنفيذية غير أنّه السلطة العُليا في الدولة.

ويتألف المجلس من حكّام الإمارات أو الذين يقومون مقامهم ومن هنا نلاحظ الطبيعية القبلية والأرستقراطية التي تطغو عليه. وتتساوى الإمارات كلّها من حيث الأصوات أثناء النقاشات (صوت واحد لكلّ إمارة). غير أنّ ما يختلف هو أهمية هذا الصوت. ففي المسائل الموضوعية أعطى الدستور لممثّلي أبو ظبي ودُبي ما يشبه حقّ الفيتو؛ إذ أنّ قراراً كهذا يتطلب أغلبية خمسة أعضاء بما فيهم أبو ظبي ودُبي. فإذا رفض أحدهما القرار لا يدخل حيّز التنفيذ.

أمّا في ما يتعلق بالمسائل الإجرائية فهي تتطلب غالبية الأصوات. وفي حال التساوي يرجّح الجانب الذي يكون فيه رئيس الاتحاد.

وإذا طلبت إحدى الدول العربية المستقلة الإنضمام إلى الاتحاد فيتطلب قرار قبول الطلب أو رفضه الإجماع.

*** تنظيم عمله**

لهذا المجلس دور انعقاد سنوي يدوم ٨ أشهر على الأقل ويبدأ في الاسبوع الأول من شهر تشرين الأول (اكتوبر) من كل عام. أمّا الجلسات العادية فتعقد كلّ شهرين في أبو ظبي وقد تعقد جلسات استثنائية عند الحاجة. ولا تكون الجلسة قانونية إلاّ إذا حضرها خمسة من أعضاء المجلس بمن فيهم ممثّلو أبو ظبي ودُبي.

*** إختصاصاته**

الاختصاصات المباشرة

١ ـ رسم السياسة العامة للدولة.

٢ ـ إنتخاب رئيس الاتحاد ونائبه.

٣ ـ قبول انضمام أعضاء جدد للاتحاد.

٤ ـ تعيين رئيس مجلس الوزراء وقبول استقالته وإعفاؤه من منصبه بناء على اقتراح رئيس الاتحاد.

٥ ـ تفويض رئيس الاتحاد ومجلس الوزراء مجتمعين إصدار المراسيم.

٦ ـ التصديق على تكتّل بعض الإمارات في وحدات سياسية أو إدارية.

٧ ـ معاونة الإمارات في حفظ الأمن والنظام بناء على طلب الأخيرة.

٨ ـ الإعتراض على الاتفاقيّات التي تعقدها الإمارات.

٩ ـ الرقابة العُليا على شؤون الاتحاد بوجه عام.

الاختصاصات التي يمارسها عبر مجلس الوزراء أو رئيس الاتحاد

١ ـ التصديق على المعاهدات التي يوافق عليها مجلس الوزراء.

٢ ـ الموافقة على تعيين رئيس وقضاة المحكمة الاتحادية العُليا وقبول استقالاتهم وفصلهم في الأحوال التي ينصّ عليها الدستور ويتمّ ذلك بمراسيم.

٣ ـ التصديق على القوانين الاتحادية.

٤ ـ المصادقة على إعلان قيام الحرب الدفاعية بمرسوم يصدره رئيس الاتحاد.

٥ ـ المصادقة على إعلان الأحكام العرفية بمرسوم بناء على عرض رئيس الاتحاد وموافقة مجلس وزراء الاتحاد.

ب ـ رئيس الاتحاد ونائبه

على الرغم من الاختصاصات التشريعية التي يتمتّع بها رئيس الاتحاد فهو يلعب دوراً مهمّاً من الناحية التنفيذية.

*** انتخاب رئيس الاتحاد ونائبه**

ينتخب المجلس الأعلى رئيس الاتحاد ونائبه من بين أعضائه، ويتطلّب هذا الانتخاب أغلبية خمسة أصوات من ضمنها صوتَي أبو ظبي ودُبي. أمّا مدّة ولاية رئاسة الاتحاد فهي تمتدّ على خمس سنوات مع جواز إعادة الانتخاب. أمّا نائب الرئيس فهو يقوم بمهام رئيس الاتحاد أثناء غيابه.

وعندما يخلو منصب الرئيس أو نائبه بسبب الوفاة أو الاستقالة أو انتهاء حكم أي منهما في ولايته، ينتخب المجلس الأعلى خلال شهر الخلف الذي يكمل مدّة سلفه. وإذا خلا المنصبان معاً يجتمع المجلس الأعلى وينتخب رئيساً ونائباً له جديدين.

*** إختصاصات رئيس الاتحاد**

إختصاصات مباشرة

١ ـ رئاسة المجلس الأعلى للاتحاد وإدارة مناقشاته.

٢ ـ دعوة المجلس الأعلى إلى الاجتماع وفضّ اجتماعاته.

٣ ـ الدعوة إلى اجتماع مشترك بين المجلس الأعلى ومجلس الوزراء كلّما اقتضت الحاجة.

٤ ـ تمثيل الاتحاد في الداخل والخارج.

٥ ـ رئاسة المجلس الأعلى للدفاع الذي يضمّ نائب الرئيس ورئيس مجلس الوزراء ووزراء الخارجية والدفاع والمالية والداخلية والقائد العام ورئيس الأركان العامة.

٦ ـ توقيع وإصدار القوانين والمراسيم والقرارات الاتحادية التي يوافق عليها المجلس الأعلى.

٧ ـ الإشراف على تنفيذ القوانين والمراسيم والقرارات الاتحادية.

إختصاصات غير مباشرة

١ ـ بواسطة المجلس الأعلى للاتحاد:

- تعيين رئيس مجلس الوزراء الاتحادي وقبول استقالته وإعفاؤه من منصبه.
- تعيين رئيس وقضاة المحكمة الاتحادية العُليا وقبول استقالتهم وفصلهم.

٢ ـ بواسطة المجلس الأعلى ومجلس الوزراء:

- إبرام المعاهدات والاتفاقات الدولية.
- إعلان الحرب الدفاعية.
- إعلان الأحكام العرفية.

٣ ـ بواسطة مجلس الوزراء:

- تعيين الممثّلين الديبلوماسيِّين وكبار الموظّفين الاتحاديِّين المدنيِّين والعسكريِّين وقبول استقالتهم وعزلهم.
- قبول اعتماد الممثّلين الديبلوماسيِّين الأجانب.
- العفو عن المجرمين أو تخفيف العقوبة والمصادقة على أحكام الإعدام.
- منع الأوسمة وأنواط الشرف العسكرية والمدنية.

ويعيّن رئيس الاتحاد نائب رئيس الوزراء والوزراء بناء على اقتراح رئيس مجلس الوزراء.

ج ـ مجلس الوزراء الاتحادي

يعيّن المجلس الأعلى رئيس الوزراء بناء على اقتراح رئيس الاتحاد. أمّا نائب رئيس المجلس والوزراء فيعيّنهم رئيس الاتحاد ويعفيهم ويقبل استقالتهم

بناء على اقتراح رئيس الوزراء. أمّا اختصاصات رئيس المجلس فهي تتعلّق برئاسة الجلسات والدعوة إلى انعقادها وإدارة المناقشات ومتابعة عمل الوزراء والتنسيق في ما بينهم. وتتطلّب قرارات المجلس غالبية أصوات أعضائه، وفي حال تساوي الأصوات يرجّح الجانب الذي فيه الرئيس. وفي حال غياب رئيس المجلس يقوم نائبه بمهامه.

*** إختصاصاته التشريعية**

١ ـ إقتراح مشاريع القوانين الاتحادية وإحالتها إلى المجلس الوطني الاتحادي قبل رفعها إلى رئيس الاتحاد لعرضها على المجلس الأعلى للتصديق عليها.

٢ ـ وضع اللوائح اللازمة لتنفيذ القوانين الاتحادية بما ليس فيه تعديل أو تعطيل لها أو أعفاء من تنفيذها، وكذلك لوائح الضبط واللوائح الخاصة بترتيب الإدارات والمصالح العامة في حدود القوانين الاتحادية وأحكام الدستور.

*** المشاركة في اختصاصات سياسية**

١ ـ إقرار المعاهدات.

٢ ـ إعلان الحرب الدفاعية.

٣ ـ إعلان الأحكام العرفية.

*** اختصاصاته التنفيذية الإدارية**

١ ـ متابعة تنفيذ السياسة العامة التي رسمها المجلس الأعلى والإشراف على تنفيذ القوانين واللوائح والمراسيم والقرارات الاتحادية.

٢ ـ الإشراف على تنفيذ أحكام المحاكم الاتحادية والمعاهدات والاتفاقات التي يبرمها الاتحاد.

٣ ـ تعيين وعزل الموظفين الاتحاديّين ممّن لا يتطلب تعيينهم أو عزلهم صدور مرسوم بذلك.

٤ ـ مراقبة سير الإدارات والمصالح العامة الاتحادية ومسلك وانضباط موظفي الاتحاد.

وترتبط الوزارة بكاملها برئيسها ارتباطاً وثيقاً، فإذا قدّم استقالته أو أُعفي من منصبه أو توفّي أو خلا منصبه لسبب من الأسباب، يعني هذا استقالة الوزارة إلاّ إذا طلب رئيس الاتحاد من الوزراء أن يبقوا في منصبهم حتى انتخاب الحكومة الجديدة.

ويتبيّن لنا من هذا كلّه الدور الكبير الذي يلعبه المجلس الاتحادي الأعلى في سياسة البلد والسلطة الكبيرة التي يتمتّع بها «حكام الإمارات»، لا سيّما حاكمَي أبو ظبي ودُبي.

٣ ـ السلطة القضائية

تتمتّع بهذه السلطة محكمة اتحادية عُليا ومحكمات ابتدائية. وتتألف المحكمة العُليا من رئيس وخمسة قضاة كحدّ أقصى يعيّنهم رئيس الاتحاد. أمّا مهامها فهي التالية:

١ ـ النظر في المنازعات المختلفة بين الإمارات أعضاء الاتحاد أو بين أيّة إمارة أو أكثر أو بين حكومة الاتحاد متى أُحيلت هذه المنازعات إلى المحكمة بناء على طلب أيّ طرف من الأطراف المعنيّة.

٢ ـ بحث دستورية القوانين الاتحادية إذا ما طعن في دستوريّتها وبحث دستورية التشريعات الصادرة عن إحدى الإمارات إذا ما طعن في دستوريّتها من قبل إحدى السلطات الاتحادية.

٣ ـ بحث دستورية القوانين والتشريعات واللوائح عموماً إذا ما طلب منها ذلك.

٤ ـ تفسير أحكام الدستور إذا ما طلب منها ذلك سواء من إحدى سلطات الاتحاد أو حكومة إحدى الإمارات.

٥ ـ سؤال الوزراء وكبار موظفي الاتحاد المعنيّين بمرسوم عما يفعلونه في أداء وظائفهم الرسمية بناء على طلب المجلس الأعلى.

٦ ـ النظر في الجرائم التي تمس مباشرة بمصالح الاتحاد.

٧ ـ تنازع الاختصاص بين القضاء الاتحادي والمحلي في الإمارات.

٨ ـ تنازع الاختصاص بين هيئة قضائية في إمارة وهيئة قضائية في إمارة أخرى.

وتمارس المحاكم الابتدائية المهام التالية:

١ ـ المنازعات المدنية والتجارية والإدارية بين الاتحاد والأفراد سواء كان الاتحاد مدّعياً أو مدّعى عليه فيها.

٢ ـ الجرائم التي ترتكب ضمن حدود العاصمة الاتحادية الدائمة باستثناء ما تختص بالنظر فيه المحكمة العُليا.

٣ ـ قضايا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية والتجارية وغيرها بين الأفراد في إطار العاصمة الاتحادية الدائمة.

سياسة الدولة

١ ـ السياسة الداخلية

كان أوّل أهداف الإمارات العربية المتحدة صون استقلالها وسيادتها، لذلك أدركت كلّ الإدراك أنّه وحده دعم المؤسّسات في الإمارات قد يحمي البلاد، إذ تكثر الإنقلابات والتحوّلات العسكرية والسياسية في البلدان المجاورة. وكما يقول قول مأثور «في الاتحاد قوّة»، على هذه الإمارات المتحدة إسماً، أن تتّحد قوّة وفعلاً فتستطيع حينها أن تسير قدماً على درب النمو والازدهار والتطوّر، فيختفي أي أثر للخلافات والنزاعات في هذه الدولة.

وبما أنّ الدول كلّها تبغي قبل كل شيء أن تصون حرّيتها، كان لا بُدّ من تأسيس جيش إماراتي يدافع عن أرض الوطن ويبذل دماءه في سبيل الاتحاد.

وتبيّن لهذه الإمارات بعد دراسات عديدة أنّ المواطن هو أهم ما في الوطن، أهمّ من النفط والمؤسّسات ومراكز الإنتاج كلّها. لذلك بذلت جهدها لتحسين مستوى الفرد العلمي والصحّي والاجتماعي فأمنت التعليم على جميع أنواعه للمواطنين كافة وحاولت أن تكون هذه الخدمات جيّدة النوعية بحيث تؤدي إلى النتائج المرجوّة فلا يذهب تعب الدولة سدىً. فالمواطن بنظرها هو سلاح الوطن. لذلك حاولت أن تتخلّص من صفتها كدولة نامية تميّز بين الريف والمدينة. فقضت على المركزية ونشرت مساعداتها الاجتماعية والصحّية والتعليمية والسكنية في القرى والمدن على حدّ سواء، لأن للدولة واجبات تجاه مواطنيها جميعهم، من دون أي تمييز بين حالتهم المادية أو الاجتماعية. وبما أنّ التطوّر والتقدّم يقتضيان التوازن بين مختلف القطاعات

والمناطق، راحت الدولة تقوم بمشاريع إنمائية في الأرياف وحتى في الصحراء. ومع هذه الإصلاحات أصبح من المعقول أن تنظر الدولة وهي مطمئنة البال إلى المستقبل.

٢ ـ السياسة الخارجية

ساس دستور الإمارات العربية المتحدة السياسة الخارجية للدولة فحدّد أنّها دولة عربية ترتبط بالعالم العربي «باللغة والتاريخ والمصير المشترك». واعتبر الإسلام الدين الرسمي للبلد وأصبحت اللغة العربية بالتالي لغة البلاد الرسمية.

وظلّت دولة الإمارات وفيّة لدستورها هذا منذ أن نالت استقلالها سنة ١٩٧١. وتثبتت قراراتها الخارجية في رغبتها في التعاون مع الدول العربية المجاورة وتقديم المساعدة للدول التي تحتاج إليها ودعمت البلدان التي تؤمن بمبادىء الحرية والاستقلال وحرية تقرير المصير.

شاركت الإمارات العربية المتحدة الدول العربية عامة، والخليجية خصوصاً، رغبتها وأملها في تحقيق تعاون في ما بينها. فوضعت التعاون مع بلدان الخليج على رأس جدول أعمالها. فجاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذي انطلق من أبو ظبي في ٢٥ أيار (مايو) سنة ١٩٨١ ثمرة لهذه الجهود المكثّفة التي بُذلت على مرّ السنين. ورأت هذه الدولة الخليجية في هذا المجلس الوسيلة والتمهيد لوحدة عربية شاملة.

أمّا في ما يتعلّق بمسألة أمن الخليج وحمايته، فتعتبر الإمارات أنّ هذا الحقّ يعود إلى بلدان الخليج العربي نفسها. فمن الضروري أن تحافظ هذه البلدان على سيادتها واستقلالها بنفسها. لذلك يجب أن تُضمن الملاحة في الخليج العربي لأنّها الشريان الحيوي لاقتصاد هذه البلدان العربية، خصوصاً بعد أن تمّ اكتشاف النفط في هذه المنطقة. وبما أنّ المحيط الهندي وبحر العرب هما البوابتان الأساسيّتان للخليج العربي، كان من الضروري أن تؤمّن حمايتها من تدخّل الدول الكبرى. فلا سلام في العالم العربي إلاّ إذا كان المحيط الهندي يتمتّع بالسلام والأمن والإستقرار. فأدركت دولة الإمارات أنّ أمن وحرية الدول العربية ترتبط بوضع الخليج العربي.

وحاولت الإمارات المتحدة جاهدة أن تضع حدّاً للصراع الذي مزّق البلدين المسلمين وهما العراق وإيران. لأنّ هذه الحرب بين الجارين تقضي على إمكانيّاتهما الاقتصادية والبشرية والعسكرية والمادية، ممّا يزيد من قوّة الدول الأجنبية التي تسعى إلى إضعاف الدول العربية المسلمة فتسيطر هي بالتالي على مواردها وفي مقدمتها النفط ومشتقّاته. لذلك أدركت الإمارات أنّه على الدول العربية أن توحّد قواها لمواجهة العدو المشترك الذي يحاول أن يهدّد استقلالها وسيادتها ومركزها إقليمياً ودولياً.

أمّا في ما يتعلّق بالقضية الفلسطينية، فلقد اعتبرتها أساس الصراعات والنزاعات في الشرق الأوسط وهي مفتاح الحلّ لهذه المنطقة. وترى دولة الإمارات العربية المتحدة أنّ أيّ تسوية غير الانسحاب التام والشامل للقوّات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة وتحرير القدس هي غير مقبولة أساساً. وقال الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في هذا السياق: «إنّ القضية الفلسطينية والعدوان الصهيوني المستمرّ على الأمة العربية هما جوهر الصراع في منطقة الشرق الأوسط فلن يكون هناك سلام دائم في هذه المنطقة من دون التوصّل إلى حلّ عادل وشامل يؤمّن للشعب العربي الفلسطيني الشريد حقّه المشروع في تقرير مصيره على أرضه، ويضمن الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة، وإنّنا ندعم شرعيّة التمثيل الفلسطيني المُعترف به عربياً ودولياً ونؤيّد جهودها الرامية إلى استعادة الحقّ الفلسطيني المُعترف به عربياً بإدارة مستقلة ورأي موحّد».

في النهاية نستطيع أن نلخّص سياسة الإمارات الخارجية بالنقاط التالية:

١ ـ إتباع سياسة حسن الجوار تجاه البلدان المجاورة. وقد مكّنتها سياستها هذه من لعب دور الحكم بين البلدان المتنازعة في المنطقة كما حصل عندما دار صراع بين اليمن الديموقراطي والدول العربية المجاورة له، وعندما دار خلاف بين مصر وليبيا. وتستغل دولة الإمارات ثروتها المالية كوسيلة للإعراب عن حسن نواياها وتجنّب عداء أيّة دولة إقليمية قويّة.

٢ ـ إرتباط سياستها بمواقف المملكة العربية السعودية. وقد تجلّى ذلك بشكل واضح عندما وقفت سنة ١٩٧٦ أثناء مؤتمر «اوبك» الذي انعقد في الدوحة

إلى جانب السعودية، في حين أنّ الدول العربية الأُخرى ومن بينها الكويت وقطر كان موقفها معارضاً.

٣ ـ المساعدات الخارجية

تؤمن دولة الإمارات العربية المتحدة بأنّ التوازن أمر ضروري لتحقيق العدل في العالم. وبما أنّ الدول القويّة صناعياً تميل إلى السيطرة على الدول الضعيفة واستغلالها، عمدت الإمارات إلى تقديم مساعدات مالية للدول النامية. فكلّما عظم الفرق بين القوى العظمى والدول الفقيرة كلّما كان المستقبل مظلماً يهدّد بالإنفجار في أيّة لحظة.

ولم تبق قرارات هذه الدولة العربية حبراً على ورق، بل أثبت الدول الكبرى على تلكّئها ومماطلتها. فمن واجب القوى العُظمى، في نظرها، أن تساهم في عملية تطوير وتحسين المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في الدول النامية. فقامت بأعمال فردية لإنقاذ هذه الدول، عن طريق صندوق أبو ظبي للإنماء الاقتصادي العربي، أو بأعمال جماعية شاركتها فيها الدول العربية من خلال صندوق «الأوبك» و«الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي الاجتماعي» و«المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا» و«الصندوق العربي للمعونة الفنية للدول العربية والأفريقية» و«البنك الإسلامي للتنمية...».

وراحت الإمارات العربية تقدّم المساعدات المالية للدول النامية منذ ١٩٧١. ووصل المبلغ الذي قدّمته كمساعدات بين العامين ١٩٧٥ و١٩٨٣ إلى حوالي ٧,١٩٦ مليون دولار. هذا يعني أنّها تقدّم ٧٩٩ مليون دولار سنوياً.

وفضلا عن هذه الإعانات المالية والقروض، قدّمت الإمارات العربية المتحدة مساعدات لا يمكن أن تقدّر بمبالغ مالية. فلقد قدّمت المساعدات لمصابي الحرب والكوارث الطبيعية، ودعم الأمراء مشاريع الإنماء وإقامة المستشفيات والمدارس والمساكن. أمّا الهدف الوحيد من هذا العمل فكان التخفيف من المشاكل التي تعاني منها هذه الدول، إن لم تستطع القضاء عليها نهائياً. لذلك لا نستطيع أن نحصر المساعدات ونحدّدها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المال المخصّص لهذا الأمر قد انخفض في السنوات الأخيرة بسبب تدهور أسعار النفط.

الإعلام والثقافة

١ ـ الإعلام في دولة الإمارات

لقد أدركت دولة الإمارات العربية المتحدة منذ نشوئها أنّ الأعلام هو وسيلة ضرورية، لا بل الوسيلة الوحيدة القادرة على توحيد شمل الإمارات السبع. لذلك حاولت وزارة الإعلام والثقافة أن تعزّز اتصالها بالمواطن، وهو ركيزة المجتمع والبلد من خلال وسائل الاعلام.

ولقد عكست وسائل الإعلام الإماراتية بما فيها التلفزيون والاذاعة ووكالة الأنباء، صورة هذا البلد وسياسته للعالم وبينّت حركة النمو والتطوّر التي يشهدهما.

وكان الإعلام أيضاً المنبر الحرّ الذي يخدم القضايا العربية ويعكس صورة مجتمع عربي حرّ ومثقّف إلى الدول الأجنبية.

وبما أنّ التلفزيون يدخل كلّ دار يومياً فيتغلغل إلى أعماق الحياة العائلية فيعرف أسرارها وتصرفاتها ويلبّي حاجة الأفراد، عمدت الدولة إلى تحسينه ودعمه ليؤدي الهدف المنشود منه. فبدأ التلفزيون الإماراتي بالبثّ بالأسود والأبيض في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ والملوّن في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤. ولا يكتفي ببثّ البرامج العربية بل هو يعرض أيضاً برامج أجنبية باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وهذا دليل واضح على ثقافة الشعب الإماراتي.

وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٦٩ أسّست «إذاعة صوت الإمارات العربية المتحدة» بدعم خاص من وزارة الإعلام والثقافة. وتبثّ الإذاعة فضلاً عن البرامج المحلية، برامج أجنبية تنقل للمواطنين أخبار الدول الأخرى.

أمّا وكالة أنباء الإمارات فلقد أنشئت في شباط (فبراير) ١٩٧٦ وهي تهدف إلى اتمام عمل وسائل الإعلام الأخرى وهي تعتمد على سياسة تقوم على أهمية الخبر والصورة ممّا يعطي للمواطن معلومات عن مختلف الأحداث التي يشهدها البلد والعالم العربي والعالم أجمع.

٢ ـ الثقافة في دولة الإمارات

لقد أدركت الدولة الإماراتية الدور المهمّ الذي تلعبه الثقافة في حياة المواطن اليومية وكيف تساهم في تعزيز وعي الشعب وتنميته. لذلك اهتمّت وزارة الإعلام والثقافة منذ مطلع ١٩٧٥ بالمسرح فنظّمت دورات تدريبية حضرها العاملون في المسرح والذين يهتمون لأمره. وشملت هذه الدورات دروساً في الإنتاج والإخراج والتمثيل والأداء والإلقاء والديكور... وسرعان ما أعطى هذا الاهتمام الثمار المرجوّة منه فارتفع عدد الفرق المسرحية وارتفع مستوى القاعات المسرحية. وبهدف نقل صورة التطوّر المسرحي إلى الخارج شاركت الفرق الإماراتية بمهرجانات عربية نذكر منها مهرجان دمشق وقرطاج... وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الدولة هي التي تدفع مصاريف المشاركة كلّها.

المراجع

١ ـ ٢١ دولة لأمة عربية واحدة، جان فرنسوا نوردينو، بيسان للنشر والتوزيع.

٢ ـ دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٥ عاماً على طريق البناء والتقدّم (١٩٧١ ـ ١٩٨٦)، وزارة الإعلام والثقافة في دولة الإمارات.

٣ . تاريخ الأقطار العربية المعاصر، ١٩١٧ ـ ١٩٧٠، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، معهد الاستشراق ـ دار التقدّم، موسكو.

المحتويات

القسم الأول: السعودية

القسم الثاني: الإمارات العربية المتحدة

